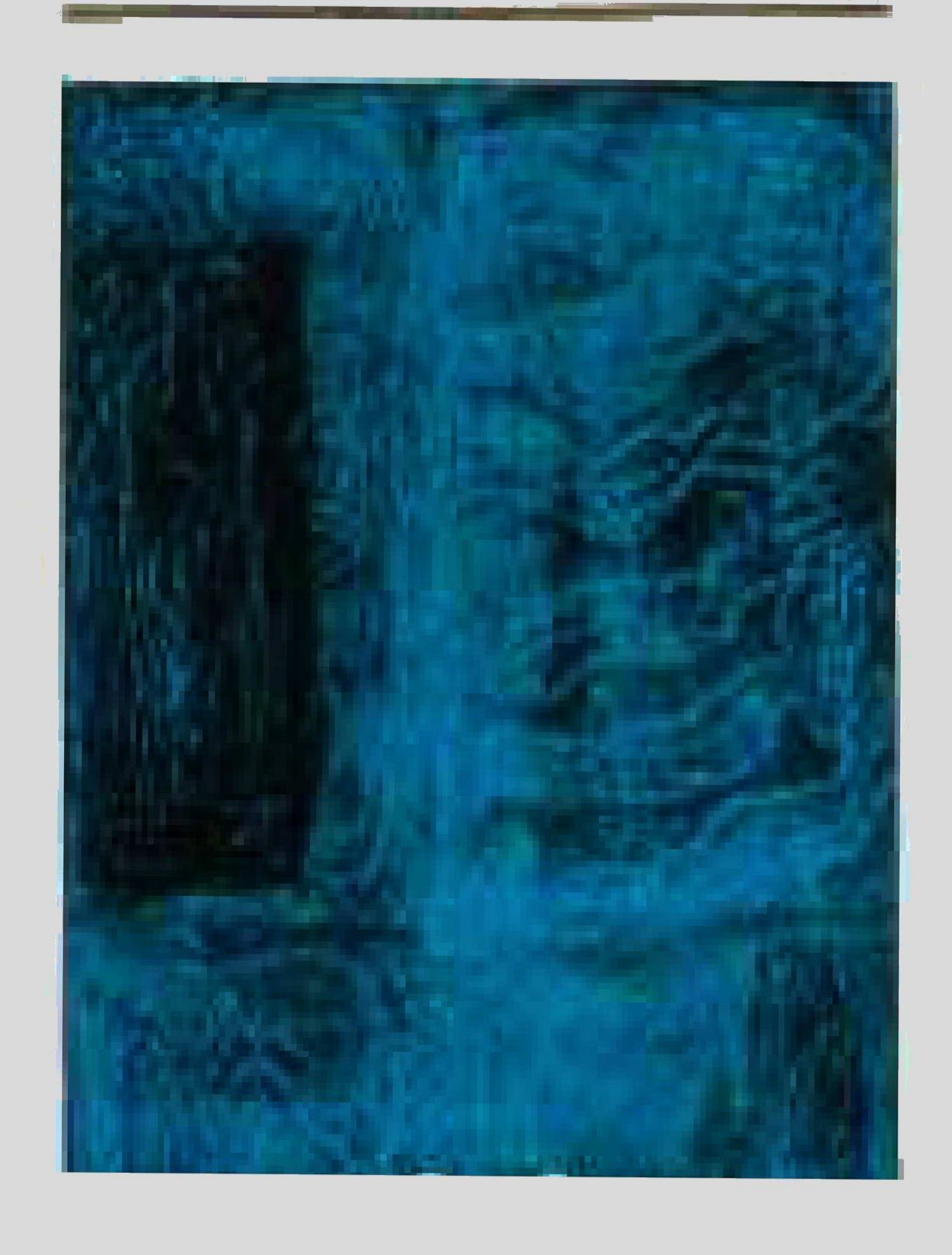
باولو كويلهو

كالنهر الذي يجري

نصوص



كن كالنهر الذي يجري
صامتاً في الليل
لا تخشَ ظلام الليل.
وإن كان في السماء نجوم، فكِّر بها.
وإذا كانت السماوات مليئة بالغيوم؛
فهي كالنهر، مصنوعة من ماء:
فكِّر بها أيضاً دون أسى
في الأعماق الساكنة.

مانويل بانديرا

مقدّمة

في سن الخامسة، قلتُ لأمي:

«لقد اكتشفتُ هوايتي، أريد أن أصبح كاتباً.

أجابتني بحزن:

ـ يا بني، أبوك مهندس، وهو رجل منطقي، وعاقل، ولديه رؤية دقيقة للعالم. فهل تعرف ما معنى كاتب؟

ـ هو شخص يكتب كتباً.

ـ عمّكَ هارولدو، وهو طبيب، يكتب كتباً، وقد طبع بعضها من قبل. ادرس الهندسة، وبعد ذلك سيكون لديك الوقت للكتابة في لحظات فراغك.

ـ لا يا أمي. أريد أن أكون كاتباً، ولا أريد أن أكون مهندساً يكتب كتباً.

ـ ولكن هل التقيتَ يوماً بأحد الكتّاب؟ أو هل رأيتَ كاتباً يوماً؟

ـ أبداً. في الصور فقط.

ـ وماذا إذن؟ تريد أن تكون كاتباً وأنت لا تعرف جيداً ما هو؟»

لكي أتمكّن من الرد على أمي، قمتُ ببحث ووجدتُ. وهذا ماكانه الكاتب في بداية الستينيات:

أ ـ الكاتب يضع نظارة باستمرار، وشعره غير مصفّف. يُمضي

نصفَ وقته غاضباً من كل شيء، والنصف الآخر مُحبَطاً. يعيش في البارات متحدّثاً مع كتاب آخرين يضعون نظارات وغير مصفّفي الشعر. يتكلّمون عن أشياء صعبة، ولديه دائماً أفكار عجيبة عن روايته المقبلة، ويكره الرواية التي انتهى من طباعتها.

ب ـ من واجبِ الكاتب ألا يكون مفهوماً من جيله، وإلا فإنه لا يُعَدّ عبقرياً أبداً، لأنه مقتنع بأنه وُلد في عصر يسوده الانحطاط. والكاتب يُجري دائماً عدة تصحيحات وتغييرات على كل جملة يكتبها. ومفردات رجلٍ عادي تتكوّن من ثلاثة آلاف كلمة؛ والكاتب الحقيقي لا يستخدمها أبداً، لأن في القاموس مئةً وتسعةً وثمانين ألف كلمة أخرى، ولأنه ليس رجلاً عادياً.

ت ـ وحدهم الكتّاب الآخرون يفهمون ما يعنيه الكاتب. ومع ذلك فهو يكره الكتّاب الآخرين سرّاً ـ لأنهم يسعون إلى الأمكنة نفسها التي يحفظها تاريخ الأدب عبر العصور. إذن يتخاصم الكاتب وأمثاله مجدَ الكتاب الأكثر تعقيداً: والكتاب الذي ينجح في أن يكون الأصعب يُعَدّ الأفضل.

ث ـ والكاتب يبرع في استخدام موضوعات ذات أسماء مُخيفة: سيموطيقيا، إبيستيمولوجيا، والحساسية الجديدة. وعندما يرغب في أن يصدم يعمد إلى استخدام جُمل مثل: «أينشتاين غبي»، أو «تولستوي مهرّج البرجوازية». إنهم مصدومون جميعاً، ولكنهم يكرّرون على مسامع الآخرين أن نظرية النسبية خاطئة، وأن تولستوي كان يدافع عن الطبقة الأرستقراطية الروسية.

ج ـ يقول الكاتب لكي يغري امرأةً: «أنا كاتب»، ويكتب قصيدة على الحقيبة، والأمور تمشي دائماً.

ح ـ ونظراً لثقافته الواسعة، فإنه يجد دائماً عملاً كناقدٍ أدبي. وفي هذه اللحظة يبينّ كَرَمَه وهو يكتب عن كتب أصدقائه. نصف النقد مكوَّن من شواهد من كتّاب أجانب؛ والنصف الآخر عبارة عن

تحليل للجمل مستخدماً دائماً عبارات من أمثال: «القطع المعرفي» أو «الرؤية المندمجة مع المحور الموافق». ومن يقرأ هذا النقد يعلّق قائلاً: «هذا الشخص مثقّف حقاً». ولا يشتري الكتاب لأنه لن يعرف كيف سيواصل قراءته عندما يتبدّى القطع المعرفي.

خ ـ عندما يُدعى إلى الحديث عما يقرأه حالياً، يذكر دائماً كتاباً لم يسمع به أحد.

د ـ ثمة كتاب وحيد يثير إعجاب الكاتب وزملاء الكتّاب هو رواية *أوليس* لجيمس جويس. والكاتب لا يذكر هذه الرواية بسوء أبداً، ولكن عندما يسأله أحدهم عما تقوله الرواية فإنه لا يتمكّن من الإجابة. الأمر الذي يدعو إلى الشك في أنه قرأها بالفعل. من العبث ألا تكون *أوليس* قد أعيدت طباعتها لأن جميع الكتاب يستشهدون بها بوصفها عملاً رائعاً. ربما مردّ ذلك هو غباء الناشرين الذين يفوّتون فرصةَ كسب كثير من المال من كتاب قرأه الجميع وأحبّوه.

بعد أن تزوّدتُ بهذه المعارف كلها التفتّ إلى أمي وشرحتُ لها كيف يكون الكاتب بالضبط ففوجئت بعض الشيء، وقالت: «من الأسهل أن يكون الإنسان مهندساً. ومع ذلك فأنتَ لا تضع نظارةً».

ولكني كنتُ منكوش الشعر، وأحمل علبة الغولواز في جيبي وأتأبّط مسرحيةً (*حدود المقاومة*، ومن حسن حظي الكبير أن أحد النقّاد وصفها بأنها «المشهد الأكثر غرابةً الذي رآه في حياته»)، دارساً هيغل ومقرّراً قراءة *أوليس* على أية حال. حتى أتى اليوم الذي تقدّم إليّ فيه مغني روك وطلب مني أن أكتب له نصوصاً ليغنّيها، فأبعدني عن البحث عن الخلود وأعادني إلى طريق الناس العاديين.

لقد سمح لي ذلك بالسفر كثيراً وبأن أبدّل رواتبي كما أبدّل أحذيتي، كما كان يقول برتولت بريشت. الصفحات التالية تحوي

قصصاً عن بعض اللحظات التي عشتُها، وقصصاً لم أحكِها، وأفكاراً كوّنتُها بينما كنتُ أجتاز مرحلةً معينة من نهر حياتي.

هذه القصص نُشرت سابقاً في بعض الصحف العالمية، وهي تشكّل موضوع كتاب جدي بطلب من القرّاء.

المؤلّف

نهار في الطاحونة

حياتي في هذه اللحظة مكونة من سيمفونية من ثلاث حركات: «أناس كثيرون»، «بعض الناس»، «لا أحد تقريباً». وكل منها يدوم نحو أربعة أشهر في السنة، كثيراً ما تختلط خلال شهر واحد لكنها لا تمتزج.

«أناس كثيرون» هي الأوقات التي أكون فيها على تماسّ مع الجمهور والناشرين والصحافيين. و«بعض الناس» عندما أذهب إلى البرازيل وألتقي بأصدقائي وأتنزّه على شاطئ كوباكابانا وأشارك في بعض اللقاءات الاجتماعية، ولكني أبقى في بيتي بصورة عامة.

ومع ذلك فإني أرغب اليوم في أن أتكلّم قليلاً عن حركة «لا أحد تقريباً». في هذه اللحظة، في جبال البيرينيه، الليل يخيّم على هذه القرية التي تعدّ نحوَ مئتي نسمة حيث اشتريتُ منذ بعض الوقت طاحونة قديمة تحوَّلت إلى بيت. أستيقظ كل صباح مع صياح الديك وأشرب قهوتي وأخرج لأتنزّه وسط الأبقار والنعاج ومزارع الذرة الصفراء والشوفان، أتأمل الجبال، وبعكس ما يحدث في حركة «أناس كثيرون»، لا أسعى إلى التفكير بما أنا فيه. ولا أطرح على نفسي أسئلةً، وليس لدي أجوبة، بل أعيش كلياً في اللحظة الحاضرة، وأنا أفهم أن السنة تحوي أربعة فصول (قد يبدو ذلك بدهياً، ولكننا ننساه أحياناً)، وأتحول إلى مثل المنظر المحيط بي.

في هذه اللحظة، أنا لا أعبأ كثيراً بما يجري في العراق أو في

أفغانستان: ككل شخصٍ آخر يعيش في الريف، الأخبار الأهم لديه هي أخبار الطقس. فسكان المدينة الصغيرة جميعاً يعرفون إن كان المطر سيهطل وإن كان الطقس سيبرد وإن كانت الريح ستهبّ، لأن ذلك يؤثر مباشرةً على حياتهم ومشاريعهم ومحاصيلهم. أرى مزارعاً يعتني بحقله، نتبادل تحية الصباح ونتكلم عن الطقس الذي سيأتي ونستأنف نشاطاتنا، هو على محراثه، وأنا في نزهتي الطويلة.

أعود وأنظر في صندوق الرسائل، فأجد فيها الصحيفة الإقليمية. هناك حفل في القرية المجاورة، ومحاضرة في بار في تارب ـ المدينة الكبيرة بسكانها الأربعين ألفاً ـ، استُدعي رجال الإطفاء خلال الليل لأن كومة قمامة اشتعلت. أما الموضوع الذي استرعى اهتمام المنطقة فهو عصابة متهمة بقطع أشجار الدلب التي تحاذي طريقاً ريفياً، لأن أفرادها تسبّبوا بموت أحد راكبي الدراجات؛ وقد شغل هذا الخبر صفحةً كاملةً وعدة أيام من التحقيقات حول موضوع «الفدائي السرّي» الذي يريد أن ينتقم لموت الصبي بقطع الأشجار.

استلقيتُ قرب جدول الماء الذي يخترق طاحونتي. نظرت إلى السماء الخالية من الغيوم في هذا الصيف الرهيب الذي تسبّب بوفاة خمسة آلاف شخص في فرنسا. نهضتُ وذهبتُ لأمارس الكيودو، التأمل مع القوس والسهم، وهذه الرياضة تأخذ مني أكثر من ساعة يومياً. حان وقت الغداء: أعددتُ وجبةً خفيفة، وفجأةً لاحظتُ في أحد ملحقات البناء القديم شيئاً غريباً مزوَّداً بشاشة وبلوحة مفاتيح متّصلة ـ وتلك أعجوبة الأعاجيب ـ بخط ذي تدفّق عالٍ جداً يسمّى أيضاً الـ ADSL. إذا ما ضغطتُ على زر من هذه الآلة، أعلم أن العالم سيأتي لملاقاتي.

قاومتُ قدر استطاعتي، لكن اللحظة أزفت، فقد لمس إصبعي زر «تشغيل»، وسرعان ما صرتُ من جديد على اتصال بالعالم،

وبأعمدة الصحف البرازيلية والكتب والمقابلات التي يجب أن أعطيها، وبأخبار العراق وأفغانستان والطلبات، وبالإعلان أن تذكرة الطائرة سيأتي غداً، بالقرارات التي عليّ أن أؤجلها، وبالقرارات التي يجب عليّ أن أتّخذها.

اشتغلتُ عدة ساعات لأني اخترتُ ذلك، لأن هذه هي أسطورتي الشخصية، لأن فارس النور يعرف أن عليه واجبات ومسؤوليات. ولكن في حركة «لا أحد تقريباً»، كل ما وُجد على شاشة الحاسوب بعيد جداً، كما تبدو الطاحونة حلماً عندما أكون في حركتَيْ «أناس كثيرون» و«قليل من الناس».

بدأت الشمس غروبها، وانطفأ الحاسوب، وبكل بساطة صار العالمُ من جديد الريفَ وعبيرَ الأعشاب وخوارَ الأبقار وصوتَ الراعي الذي يعيد نعاجه إلى الحظيرة قرب الطاحونة.

تساءلتُ كيف يمكنني أن أتنزّه في نهار واحد في عالمَين مختلفين هذا الاختلاف كلّه: ليس لدي جواب، ولكني أعرف أن هذا يمنحني كثيراً من المتعة، مثلما أنا مستمتع بكتابة هذه الأسطر.

الرجل الذي كان يتبع أحلامه

ولدتُ في مشفى سانت ـ جوزيف في ريو دو جانيرو. ولمّا كان المخاض عسيراً فقد نذرتني أمي إلى هذا القديس، وتوسّلت إليه أن يساعدني على الحياة. وأصبح جوزيف مرجعي في الحياة، ومنذ عام 1987، السنة التي تلت حجي إلى القديس جاك دو كومبوستيلا، كرّستُ يوم 19 آذار للاحتفال على شرفه. أدعو بعض الأصدقاء وأشخاصاً نشيطين وشرفاء، قبل العشاء، نصلّي من أجل جميع أولئك الذين يبذلون جهداً فيما يفعلونه. كذلك نصلّي من أجل أولئك العاطلين عن العمل، وليس لديهم أي أفق.

في المقدمة الصغيرة التي أقدّمها قبل الصلاة، اعتدتُ أن أذكّر أن كلمة «حلم»، إذا كانت قد ظهرت خمس مرات في العهد الجديد، فإن أربعاً منها ترجع إلى جوزيف، «يوسف» النجار. وفي هذه الحالات جميعاً، أقنَعَه أحد الملائكة بأن يفعل تماماً عكس ما كان ينوي أن يفعله.

طلب الملاك ألا يهجر زوجته، حتى لو كانت حاملاً. وكان يمكنه أن يقول أشياء من قبيل: «بم سيفكّر الجيران؟» ولكنه عاد إلى بيته وآمن بالكلام الموحى إليه.

أرسله الملاك إلى مصر، وكان يمكنه أن يقول: «ولكني مستقرّ هنا كنجّار، ولديّ زبائني، ولا أستطيع أن أترك كل شيء الآن!» ومع ذلك، فقد رتّب أشياءه وسافر نحو المجهول.

طلب منه الملاك أن يعود من مصر، وكان بوسعه أن يقول: «الآن، وبعد أن نجحتُ في الاستقرار في حياتي، وصار لدي عائلة أعيلها؟».

بعكس ما يريده الحس السليم، كان جوزيف يتبع أحلامه، وهو يعلم أن لديه قَدَراً يجب أن ينجزه، قدر الناس جميعاً أو تقريباً على هذا الكوكب: حماية أسرته وإطعامها، كملايين الجوزيفات المُغْفَلين. إنه يسعى إلى التحلّل من مهمته، حتى لو كان عليه أن يقوم بأمور تتجاوز فهمه.

فيما بعد، أصبحت زوجتُه، وكذلك أحدُ أبنائه أكبر مرجعين في المسيحية. العمود الثالث في الأسرة، لا نفكّر به إلا في احتفالات مذود المسيح في نهاية العام، أو إذا كان لنا نذر خاص به، وتلك هي حالي، وكذلك حال ليوناردو بوف الذي كتبتُ له مقدمة كتابٍ عن النجار.

كررتُ جزءاً من نصٍّ للكاتب كارلوس هايتور كوني (آمل أن يكون حقاً له، لأني اكتشفته على الإنترنت).

«إني أستغرب حقاً أن أحترم بعض القديسين من تقويمنا التقليدي، وأنا أعلن نفسي من اللاأدريين، ولا أقبل فكرة إلهٍ فلسفي، أخلاقي أو ديني. الله مفهومٌ أو كيان بعيد جداً عن وسائلي، وحتى عن حاجاتي، أما القدّيسون، ولأنهم أرضيون، ومصنوعون من الصلصال نفسه الذي صُنعتُ منه، فإنهم يستحقون أكثر من إعجابي، إنهم يستحقّون إخلاصي.

«القديس جوزيف أحدهم. الأناجيل لا تذكر كلمةً واحدة عنه، بل مجرّد حركات ومرجعاً ظاهراً: رجل عادل. وبما أن المقصود هنا نجارٌ وليس قاضياً، نستنتج أن جوزيف كان طيباً فوق كل شيء. كان نجاراً طيباً، وزوجاً طيباً، وأباً طيباً لطفل سوف يغيّر تاريخ العالم».

كلام جميل لكوني. وأنا، غالباً ما أقرأ مغالطات من قبيل: «ذهب يسوع إلى الهند ليتعلّم مع أسياد الهيمالايا».

برأيي، يستطيع كل إنسان أن يحوّل الرسالة التي تعطيه إياها الحياة إلى رسالة مقدّسة، وتعلّم يسوع بينما كان جوزيف يعلّمه صناعة الطاولات والكراسي والأسرّة.

إني أستمتع بتخيّل أن الطاولة التي كرّس عليها المسيح الخبز والخمر قد صنعها جوزيف - فقد كانت هناك يد نجارٍ مُغفَلٍ كان يكسب عيشه من عرق جبينه، ولهذا السبب بالضبط، كان يسمح بأن تحدث المعجزات.

الشر يريد أن يُفعَل الخير

يروي الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي أن معاوية، أول خليفة أموي، كان نائماً ذات يوم في قصره عندما أيقظه رجل غريب، وسأله:

ـ من أنت؟

ـ أنا الأصيفر «لوسيفر».

ـ وماذا تريد الآن؟

ـ لقد حان وقت صلاتك، وما تزال نائماً.

دُهش معاوية، فكيف يريد أمير الظلمات، الذي يتمنّى دائماً أن تخلو أرواح البشر من الإيمان، أن يساعده على تأدية واجبه الديني؟

لكن الأصيفر قال:

«تذكّر أني خُلقتُ ملاكاً نورانياً. ورغم كل ما حصل لي في خلال وجودي، لا أستطيع أن أنسى أصلي. يستطيع الإنسان أن يذهب إلى روما أو إلى بيت لحم، وهو يحمل دائماً في قلبه قيَمَ وطنه: والشيء نفسه بالنسبة إليّ. أنا ما أزال أحبّ الخالق الذي أطعمني عندما كنتُ شاباً وعلّمني أن أفعل الخير. وعندما عصيتُ أمره، لم يكن ذلك لأني لم أكن أحبّه، بل على العكس، لقد كنتُ أحبّه إلى درجةٍ أن الغيرة نهشتني عندما خلق آدم. في تلك اللحظة أردتُ أن أتحدّى المولى، ما تسبّب بهلاكي؛ ومع ذلك عليّ أن أتذكّر الحسنات التي أُعطيتُها ذات يوم، وربما أستطيع أن أعود إلى الجنة إذا ما فعلتُ الخير».

أجابه معاوية:

«لا قِبَلَ لي بتصديق ما تقوله، فأنتَ مسؤول عن فساد كثيرٍ من الخلقِ على وجه الأرض».

ردّ الأصيفر:

- صدّقني. الله وحده هو من يبني ويهدم، لأنه القادر على كل شيء. وعندما خلَق الإنسان جعل من مزايا الحياة الشهوة والانتقام والشفقة والخوف. وبالتالي، عندما ترى الشر من حولك لا تلمني لأني مجرّد مرآةٍ للمصائب التي تحدث.

اقتنع معاوية أن في الأمر شيئاً ما، فأخذ يصلّي بيأس لكي ينير اللهُ طريقه. ثم أمضى الليل يحاور الأصيفر، ورغم الحجج المقنعة التي سمعها لم يقتنع.

وعندما طلع النهار، استسلم الأصيفر أخيراً وقال:

«حسنٌ، أنت على حق. وعندما أتيتُ عصراً لكي أنبّهك ألا تفوّت وقت الصلاة، لم تكن نيّتي أن أقرّبكَ من النور الإلهي.

كنتُ أعرف أنك إذا لم تؤدِّ واجباتك فستشعر بحزن شديد، وأنك ستصلّي في الأيام التالية بإيمان مضاعَف، مستغفراً اللهَ على نسيانك فرضاً ضرورياً. فعند الله إن كل صلاة مُقامَة بحبّ وندم تعادل مئتي صلاة مقامة بطريقة عادية. ستصبح في النهاية أنقى وأكثر إلهاماً، وسيحبّك الله أكثر، وسأكون بعيداً عن نفسك».

ذهب الأصيفر ثم دخل ملاك نوراني بعده بقليل وقال لمعاوية:

«لا تنسَ درسَ اليوم أبداً. فقد يتنكّر الشر في ثياب الخير، لكن نيّته الخفيّة هي إحداث أكبر قدرٍ من الخراب».

في ذلك اليوم، وفي الأيام التالية، صلّى معاوية بكثير من الندم والورَع والإيمان، فسمع الله صلواته مضاعفةً ألف مرة.

مستعدّ للمعركة
ولكن بكثيرٍ من الشك

لبستُ لباساً أخضر غريباً، مليئاً بالسحّابات الكبيرة، ومنسوجاً من قماش خشن. ويداي مغلّفتان بقفازات لتجنّب الجروح. وحملتُ مايُشْبهُ الرمح يقارب طولُه طولي: لطرفه المعدني ثلاثة أسنان من جهة، ورأس مدبّب من الجهة الأخرى.

وأمام ناظري ما سيتعرّض للهجوم بعد لحظة: حديقتي.

بالأداة التي في يدي، بدأتُ أنتزع الأعشاب الضارّة التي اختلطت بالعشب المفيد. فعلتُ ذلك لفترةٍ لا بأس بها، وأنا أعرف أن النبات المنتَزَعَ من التربة سيموت بعد يومين.

تساءلتُ فجأةً: هل ما أقوم به عملٌ جيد؟

ما أسميتُه «الأعشاب الضارة» هو في الحقيقة محاولة نوعٍ معينٍ من العشب للبقاء، ذلك الذي أنفقت الطبيعة ملايين السنين لتوليده وتنميته. لقد أُخصبت الزهرة بفضل ما لا يعدّ ولا يُحصى من الحشرات، وصارت بذرةً، وبعثرتها الرياح في الحقول المجاورة، وهكذا ـ غُرست ليس في نقطة واحدة، بل في أماكن متعدّدة ـ فإن لها حظوظاً كبيرة في أن تصل إلى الربيع القادم. لو أنها تركّزت في مكان واحد، كانت ستُهَدّدها الحيوانات العشبية أو الفيضانات أو الحرائق أو الجفاف.

ولكن هذا البقاء كلّه مهدّد الآن بهذا الرمح الذي يقتلعها من التربة دون أية شفقة.

فلماذا أفعل ذلك؟

أحدهم أوجد الحديقة. لا أعرف من هو. عندما اشتريتُ البيت كانت هنا، منسجمةً مع الجبال والأشجار المحيطة بها. ولكن لا بدّ أن مُبدعها قد فكّر مليّاً بما سيفعله، وأنه زرعها بكثيرٍ من العناية والاستعداد (هناك صفّ من الأشجار الصغيرة التي تخبّئ خلفها الكوخ الذي نضع فيه الحطب)، واهتمّ بها طوالَ خريفات وربيعات عديدة. وعندما سلّمني الطاحونة القديمة ـ حيث أُمضي بضعة أشهر في السنة ـ كان العشب طويلاً. الآن، عليّ أن أتابع عمله رغم أن السؤال الفلسفي يبقى: هل عليّ أن أحترم عمل هذا المبدع، البستاني، أم يجب عليّ أن أحترم غريزة البقاء التي حَبَت بها الطبيعةُ هذه النبتَةَ التي صار اسمها الآن «أعشاباً ضارة»؟

تابعتُ اقتلاع الأعشاب غير المرغوبة وتكويمها لحرقها فيما بعد. قد أكون أبالغ في التفكير في موضوع لا يستدعي تفكيراً بل أفعالاً. ومع ذلك فإن كل حركةٍ من الكائن البشري مقدّسة ومليئة بالنتائج، وهذا يدفعني إلى التفكير مليّاً بما أفعله.

من ناحية، لهذه النباتات الحق في أن تنتشر في الاتجاهات كلها. ومن ناحيةٍ أخرى، إذا لم أنتزعها الآن فسوف تقتل الأعشاب المفيدة. في العهد الجديد، تحدّث يسوع عن اقتلاع الزؤان لئلا يختلط مع البذرة الطيبة.

ولكن ـ بدعمٍ من الكتاب المقدس أو بدونه ـ أنا أواجه المشكلة المحسوسة التي ما تزال البشرية تواجهها: إلى أية درجة من الممكن التدخّل في الطبيعة؟ هل هذا التدخّل سلبي دائماً، أم إنه قد يكون إيجابياً أحياناً؟

ألقيت جانباً سلاحي الذي اصطلح على تسميته المعزقة. فكل

ضربة منه تعني نهاية حياة، وفناءَ زهرةٍ ستتفتّح في الربيع، وغطرسة الكائن البشري الذي يريد أن يكيّف المنظر من حوله. يجب أن أفكّر أكثر لأني أمارس في هذه اللحظة سلطةَ الحياة والموت. يبدو العشب المفيد وكأنه يقول: «احمِني، فهي تريد أن تقتلني!»، وتحدّثني تلك الأعشاب أيضاً قائلةً: «أنا آتية من البعيد لكي أصل إلى حديقتك، فلماذا تريد أن تقتلني؟».

في النهاية، ما أنقذني هو النص الهندي للبهاغافاد - جيتا. تذكّرتُ جواب كريشنا للفارس أرجونا عندما خاف وألقى سلاحه قبل معركةٍ حاسمة، وقال إنه من الظلم الاشتراك في معركة سيقتل فيها أخاه. ردّ عليه كريشنا بما معناه: «هل تعتقد أن بوسعك أن تقتل أحداً؟ يدكَ يدي. وكل ما تقوم به مكتوب مسبقاً. لا أحد يَقتُل، ولا أحد يموت».

شجّعني هذا التذكّر المفاجئ، فحملتُ رمحي من جديد وهجمتُ على الأعشاب التي لم تكن مدعوّةً للعيش في حديقتي، واحتفظتُ بالدرس الوحيد لذلك الصباح: عندما ينبت شيء غير مرغوبٍ فيه في نفسي، أدعو اللهَ أن يمنحني الشجاعة لأن أقتلعه منها بلا شفقة.

طريق الرماية بالقوس

يطيب لي أن أردّد: الفعل هو فكرة تتجسّد.

حركةٌ صغيرة تدلّ علينا بحيث أن من واجبنا أن نُحسّن كل شيء، وأن نفكّر في التفاصيل، وأن نتعلّم التقنية بحيث تكون حدسية. لا علاقة للحدس بالروتين، بل إنه يتعلّق بحالة عقلية تتجاوز التقنية.

وهكذا بعد أن مارسنا كثيراً، لا نعود نفكّر بالحركات الضرورية: إنها تشكّل من الآن فصاعداً جزءاً من وجودنا. ولكن من أجل هذا، يجب علينا أن نتدرّب ونكرّر.

وكما لو أن ذلك لا يكفي، يجب أن نكرّر ونتدرّب.

تأمّلوا حدّاداً جيداً يشتغل بالحديد، إنه يكرّر ضربات المطرقة نفسها بالنسبة لعين غير مدرَّبة.

ولكن من يعرف أهمية التدريب يعرف أنه كلّما رفع مطرقته وأنزلها كلّما اختلفت شدّة الضربة. اليد تكرّر الحركة نفسها، ولكن كلّما اقتربت من الحديد تعرف إن كان عليها أن تلمسه بقوة أو بلطف.

تأمّلوا الطاحونة. من ينظر إلى أجنحتها مرةً واحدة، يبدو أنها تدور بالسرعة عينها مكرّرة الحركةَ نفسها.

ولكن من يعرف الطواحين يعرف أنها خاضعة للرياح وأنها تغيّر اتجاهها كلما دعت الحاجة.

يد الحدّاد تدرّبت بعد أن كرّر حركة الطرق آلاف المرات. وأجنحة الطاحونة يمكنها أن تتحرّك بسرعة كبيرة عندما تهبّ الرياح بقوة، وتكون مسنّناتها في حال جيدة.

الرامي يقبل أن يُخطئ كثير من السهام الهدف لأنه يعرف أنه لن يتعلّم أهميةَ القوس، والوضعية والوتر والدريئة إلا بعد أن يكون قد كرّر حركاته آلاف المرات دون أن يخشى أن يُخطئ.

ثم يأتي الوقت الذي لا يعود فيه بحاجة إلى التفكير بما يفعله. عندئذ يصبح الرامي قوسَه وسهمه ودريئَته.

كيف نراقب طيران السهم: السهم هو النية التي تتبدّى في الفضاء.

ما إن يُطلَق، حتى لا يستطيع الرامي فعلَ أي شيء، ماخلا مواكبة رحلته نحو الهدف بنظره. بدءاً من تلك اللحظة لا يعود هناك مسوِّغ لوجود التوتّر الضروري للرمي.

إذن يُبقي الرامي نظَرَه مثبَّتاً على طيران السهم وقلبه مطمئن وشفاهه مبتسمة.

في تلك اللحظة، يكون قد تدرّب بما يكفي، وتوصّل إلى تطوير غريزته واحتفظ بأناقته وتركيزه طوال عملية الرمي، وسوف يشعر بحضور الكون ويرى أن حركته كانت صحيحة وجيّدة.

بفضل التقنية تكون تكون هاتان اليدان مستعدتين وتنفّسه دقيقاً وعيناه تستطيعان التصويب نحو الدريئة. بفضل الغريزة تكون لحظة الرمي ممتازة.

من يمر من هناك ويرى الرامي ويداه متباعدتان وعيناه تتبعان السهم، يظن أنه مشلول. ولكن العارفين يعرفون أن روح الرامي في مكان آخر، وأنه الآن على تواصل مع الكون بأكمله: يواصل العمل إذ يتعلّم كل ما حمله هذا الرمي من إيجابية، ومصحِّحاً الأخطاء

المحتمَلة، وقابلاً مزاياه، ومنتظراً أن يرى كيف ستردّ الدريئة عندما تُصاب.

عندما يشدّ الرامي الوتر يستطيع أن يرى العالم بأسره في قوسه. وعندما يواكب طيران السهم، يدنو هذا العالم منه ويداعبه وينتابه الإحساس الكامل بتأدية الواجب.

وحين يؤدّي فارس النور واجبه ويحوّل نيّته إلى حركة، لا يعود لديه ما يخشاه: لقد قام بكل ما يجدر به أن يقوم به. ولم يدع نفسه فريسةً للشلل ـ حتى لو لم يُصِب السهم الهدف، سيكون لديه فرصة أخرى لأنه لم يبدُ جباناً.

كان الطفل الصغير ينظر إلى جدّه وهو يكتب رسالةً، فسأله في لحظةٍ ما:

«هل تكتب قصة حدثت معنا؟ هل هي قصة عني؟».

توقّف الجد عن الكتابة ثم ابتسم وقال لحفيده:

«أكتب عنكَ، هذا صحيح، ولكنّ القلم الذي أكتب به هو أصدق من الكلمات. أحبّ أن تكون مثله عندما تكبر».

دُهش الصبي ونظر إلى القلم، فلم يرَ فيه شيئاً خاصاً، فقال:

«ولكنه لا يختلف عن أي قلم آخر رأيتُه في حياتي!

ـ كل شيء يتعلّق بالطريقة التي تنظر بها إلى الأشياء. يوجد فيه خمس مزايا تجعل منكَ شخصاً في سلام مع العالم إذا ما تمكّنتَ من الاحتفاظ بها.

«المزية الأولى: تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة. ولكن عليك ألا تنسى أبداً أن هناك يداً ترشد خطواتك. ونحن نسمّي هذه اليد اللهَ، ولا بدّ أنه يقودكَ دائماً نحو إرادته.

«المزية الثانية: بين وقتٍ وآخر، علّي أن أتوقّف عن الكتابة وأستخدِمَ المبراة. يتألّم القلم قليلاً، ولكنه يصبح في النهاية مشحوذاً

أكثر. وبالتالي، اعلم كيف تتحمّل بعض الآلام لأنها ستجعل منك شخصاً أفضل.

المزيّة الثالثة: يسمح لنا قلم الرصاص دائماً بأن نستخدم ممحاةً لمحو أخطائه. فاعلم أن تصحيح شيءٍ قمنا به ليس بالضرورة سيئاً، بل إن ذلك مهمّ لإبقائنا على طريق العدالة.

«المزيّة الرابعة: ما يهمّ في قلم الرصاص حقّاً ليس الخشب أو شكله الخارجي، بل الغرافيت الموجود في الداخل. وبالتالي اعتنِ دائماً بما يحدث في داخلك.

«وأخيراً، المزيّة الخامسة لقلم الرصاص: اترك علامةً دائماً. بل اعلم أن كل ما ستفعله في الحياة سيترك أثراً، فاجتهد لأن تكون واعياً لكل أفعالك».

كتاب لتسلّق الجبال

أ ـ اخترِ الجبل الذي تريد تسلّقه، ولا تنسَق وراء تعليقات الآخرين الذين يقولون لك : «هذا الجبل أجمل» أو «ذاك أسهل»، فستنفق كثيراً من الطاقة ومن الحماسة لكي تصل إلى هدفك. أنت المسؤول الوحيد، وعليكَ أن تكون واثقاً مما تفعله.

ب ـ اعرف كيف تصل إلى أمامه، فغالباً ما يُرى الجبل من بعيد ـ جميلاً، مهماً، مليئاً بالتحديات ـ، ولكن عند محاولة الاقتراب منه ماذا يحدث؟ الطريق يزنّره، وهناك غابات بينك وبينه، وما يظهر واضحاً في الخارطة يكون صعباً في الحياة الواقعية. وبالتالي جرّب الطرق والدروب كافة، وذات يوم ستجد نفسكَ على القمة التي تتمنّى بلوغَها.

ت ـ تعلّم من أحدٍ ما مرّ من هناك، فمهما رأيتَ نفسكَ فريداً، هناك دائماً أحدٌ ما حقّق الحلمَ نفسَه قبلك، وترك علامات يمكنها أن تسهّل عليك المهمة. هذا طريقك، وتلك مسؤوليتك أيضاً، ولكن لا تنسَ أن تجربة الآخرين نافعة جداً.

ث ـ المخاطر يمكن التغلّب عليها إذا ما نُظر إليها عن كثب. عندما تبدأ تسلّق الجبل، تنبّه إلى ما حولك. هناك هاويات بالتأكيد، وشقوق غير ملحوظة تقريباً، وصخور صقلتها العواصف إلى درجة أنها أصبحت سريعة الانزلاق. ولكن إذا عرفتَ كيف تضع كل قدمٍ فستلحظ الأفخاخ وستتمكّن من تفاديها.

ج ـ المنظر يتغيَّر فاستفِد من ذلك. من الواضح أن على الإنسان أن يضع هدفاً في رأسه: الوصول إلى القمة. ولكن كلّما صعد رأى الأشياء أكثر، ولا يكلّفه كثيراً أن يتوقّف بين وقتٍ وآخر ويستمتع قليلاً بالبانوراما المحيطة. ومع كل متر تصعده تستطيع أن ترى أبعد؛ فاستفِد من ذلك لكي تكتشف الأشياء التي لم تمّيزها بعد.

ح ـ احترِم جسدك. وحدَه من يُعِرْ جسدَه الاهتمامَ الذي يستحقّه ينجح في تسلّق الجبل. لديك كل الوقت الذي تمنحك إياه الحياة، فامشِ دون أن تتطلّب ما لا تستطيع أن تعطيه. إذا ما سرتَ بسرعة فائقة فستتعب وتتلاشى في منتصف الطريق. وإذا ما سرتَ ببطء شديد قد يهبط الليل وتضيع. استفد من المنظر واستمتِع بماء الينابيع البارد ومن الثمار التي تقدّمها لك الطبيعة بسخاء، ولكن تابع السير.

خ ـ احترِم روحك. ولا تكرّر طوال الوقت: «سوف أنجح». فروحك تعرف ذلك، وما هي بحاجة إليه هو استخدام هذا الطريق الطويل لكي تكبر، وتتمدّد إلى الأفق وتبلغ السماء. إن الهجس لا يساعد على السعي إلى هدفك وسيحرمكَ في النهاية من متعة التسلّق. ولكن انتبِهْ: لا تكرّر أيضاً: «هذا أصعب مما كنتُ أعتقد»، لأن ذلك يجعلك تفقد قوتك الداخلية.

د ـ تأهّب لكي تسير كيلومتراً إضافياً. المسافة حتى قمة الجبل هي دائماً أطول مما تعتقد، فلا تكذب على نفسك، إذ ستأتي اللحظة التي تكتشف فيها أن ما كان يبدو لكَ قريباً هو أبعد. ولكن بما أنك مستعد للذهاب أبعد، فليس هناك من مشكلة.

ذ ـ استمتع عندما تصل إلى القمة. ابكِ، صفّق بيديك، اصرخ في الجهات الأربع بأنكَ نجحت، واترك الرياح في الأعلى (لأن الرياح هناك تهبّ دائماً) تطهّر روحك، وتبرّد قدميك التعبتين والمتعرّقتين، وافتح عينيك، وانفض الغبار عن قلبك. هذا رائع، ما لم يكن في السابق إلا حلماً، رؤيةً بعيدة، صار الآن جزءاً من حياتك، لقد نجحت.

ر ـ أعطِ وعداً. لقد اكتشفتَ قوةً لم تكن تعرفها من قبل، استفد منها وقل لنفسك إنك ستستخدمها من الآن فصاعداً فيما تبقّى من حياتك. ومن الأفضل، عِد أيضاً أنك ستكتشف جبلاً آخر وأنك ستنطلق نحو مغامرة جديدة.

ز ـ اروِ قصتك. نعم، اروِ قصتك. أعط نفسك مثلاً. وقل للجميع إن ذلك ممكن، عندئذ سيشعر أشخاصٌ آخرون بالشجاعة على مواجهة جبالهم الخاصة.

عن أهمية الشهادة

طاحونتي القديمة، في القرية القديمة في البيرينيه، منفصلة عن المزرعة المجاورة بصف من الأشجار. ذات يوم، أتى جاري لزيارتي، وهو رجل في نحو الستين من عمره. غالباً ما كنتُ أراه يشتغل في الحقل مع زوجته، وكنتُ أفكّر أن الوقت قد حان لكي يستريحا.

على العموم كان الجار لطيفاً، وقال لي إن أوراق أشجاري الميتة تتساقط على سطحه، وإن عليَّ أن أقطعها.

صُدمت، فكيف يريد شخصٌ أمضى كل حياته مع الطبيعة أن أدمّر شيئاً لاقى كل هذا العناء في النمو، ببساطة لأنه قد يؤذي سطحه، بعد عشر سنوات.

دعوتُه إلى تناول القهوة، وقلتُ له إني مسؤول، وإني أتعهّد ببناء سطحٍ جديد له إذا سببّت هذه الأوراق الميتة (التي ستذروها الرياح والصيف) أقلَّ ضرر. قال الجار إن ذلك لا يعنيه، وهو يريد أن أقطع الأشجار. شعرتُ بالغضب وقلتُ له إني أريد أن أشتري مزرعته. فقال:

«مزرعتي ليست للبيع».

«ولكن بهذا المال تستطيع أن تشتري بيتاً رائعاً في المدينة، وأن تعيش فيه ما بقي من أيامك مع زوجتك، ولا تعود بحاجة لمقارعة شتاءات عاصفة ومحاصيل تالفة».

ـ المزرعة ليست للبيع، ولقد ولدتُ فيها، وترعرعت، وكبرتُ على الانتقال منها.

وعرض عليّ أن يأتي خبيرٌ من المدينة ويقوم بتخمين ويقرّر، وهكذا لا يعود أحدٌ بحاجة للغضب، فنحن جيران، في نهاية المطاف.

بعد ذهابه كانت ردّة فعلي الأولى أني نعتّه بعدم الإحساس وبالاحتقار للأرض الأم. ثم تساءلتُ: لماذا لم يقبل ببيع أرضه؟ وقبل نهاية النهار فهمتُ أن جاري لم يعرف في الحياة إلا قصة واحدة، وأنه لا يريد أن يغيّرها. إن الذهاب إلى المدينة يعني أيضاً الغوص في عالم مجهول له قيمٌ أخرى، ربما وجد نفسه أكبر سناً من أن يكتسبها.

هل يحدث هذا لجاري فقط؟ لا، أعتقد أن هذا يحدث للجميع ـ فأحياناً نحن متعلّقون جداً بطريقة عيشنا إلى درجة أننا نرفض فرصةً كبرى بسبب عدم معرفتنا استخدامَها. في حالته، مزرعته وقريته هما المكانان الوحيدان اللذان يعرفهما، فلا داعي للتعرّض للمخاطر. أما بالنسبة إلى الناس الذين يسكنون المدينة، فلديهم القناعة بأنه يجب عليهم الحصول على شهادة جامعية، والزواج وإنجاب أولاد، والعمل بحيث يحصل أبناؤهم على الشهادة الجامعية وهكذا دواليك. لا أحد يتساءل: «هل من الممكن أن أفعل شيئاً آخر؟».

أذكر أن مزيّني كان يعمل ليل نهار لكي تصل ابنتُه إلى نهاية دراساتها في علم الاجتماع. أنهت دراستها الجامعية، وبعد أن طرقت أبواباً كثيرة، وجدت وظيفة سكرتيرة في شركة لإنتاج الإسمنت. ومع ذلك، كان مزيّني يقول مفتخراً: «ابنتي تحمل شهادة».

معظم أصدقائي، وأبناء أصدقائي، يحملون شهادات أيضاً. وهذا لا يعني أنهم وجدوا العمل الذي كانوا يرغبونه ـ بل على العكس، لقد انتسبوا إلى جامعة وتخرّجوا منها لأنه، حين كانت

الجامعات هامة، قيل لهم: من أجل النهوض في الحياة يجب عليهم أن يحصلوا على شهادة. وهكذا فقَدَ العالم بستانيّين ممتازين وخبّازين ممتازين وتجّارَ أشياء قديمة ممتازين ونحّاتين ممتازين وكتّاباً ممتازين.

ربما حان الوقت لمراجعة هذا: الأطباء والمهندسون والعلماء والمحامون عليهم أن يُجروا دراسات عليا. ولكن هل الجميع بحاجة إليها؟ وسأترك أبيات روبير فروست تعطي الجواب:

«كان أمامي طريقان

اخترتُ الطريق الأقل سلوكاً

فتميّزتُ».

لإنهاء قصة الجار: أتى الخبير، وفاجأني عندما أظهر لنا قانوناً فرنسياً ينصّ على وجوب أن تبتعد أية شجرة ثلاثة أمتار عن ملكية الغير. وأشجاري تبعد مترين، فعليَّ أن أقطعها.

في بار في طوكيو

طرح الصحافي الياباني السؤال الاعتيادي:

«من هم كتّابكَ المفضّلون؟».

وأعطيتُ الجواب الاعتيادي:

«جورج أمادو، وخورخي لويس بورخِس ووليم بليك وهنري ميلر».

نظرت إليّ المترجمة باستغراب عندما قلت: «هنري ميلر؟».

ولكن سرعان ما أدركتُ أن دورها ليس طرح الأسئلة، واستأنفت عملها. وفي نهاية المقابلة أردتُ أن أعرف لماذا فاجأها جوابي إلى هذا الحد. قلتُ لنفسي ربما لم يكن هنري ميلر الكاتب «الصحيح سياسياً»، ولكنه شخص فتح لي عالماً هائلاً - إذ أن لأعماله طاقة حيوية قلّما نجدها في الأدب المعاصر.

قالت: «أنا لا أنتقد هنري ميلر، فأنا أيضاً معجبة به. هل تعلم أنه كان متزوّجاً من يابانية؟».

نعم، بكل تأكيد: أنا لا أخجل من أن أكون متعصّباً لأحدٍ ما، وأريد أن أعرف كل شيء عن حياته. لقد ذهبتُ إلى معرض للكتاب فقط لكي أتعرّف إلى جورج أمادو، وسافرتُ في الحافلة ثمانية وأربعين ساعة لكي أقابل بورخِس: (لقاء لم يتم بسبب خطأ مني: عندما رأيتُه، بقيتُ مشلولاً ولم أقل شيئاً)، طرقتُ بابَ جون لينون في نيويورك (طلب مني البوّاب أن أترك رسالةً عن سبب الزيارة، وقال

إن من المحتمل أن يتّصل لينون، الأمر الذي لم يحدث أبداً). وكنتُ أنوي أن أذهب إلى «بيغ سور» لمقابلة هنري ميلر، ولكنه مات قبل أن أجد المال اللازم للسفر.

أجبتُ مزهوّاً: «كانت اليابانية تُدعى هوكي. وأعرف أيضاً أن في طوكيو متحفاً مخصّصاً للوحات المائية عن ميلر».

ـ هل ترغب في مقابلتها هذا المساء؟

يا له من سؤال! طبعاً أرغب في أن أكون بجانب شخص عاش مع أحد معبوديَّ. تخيّلتُ أنها لا بدّ تستقبل أناساً من أنحاء العالم كافة، وتتلقّى طلبات للمقابلات، فقد بقيا معاً ما يقارب العشر سنوات. أليس من الصعب جداً إن نطلب منها أن تبدّد وقتَها مع معجبٍ بسيط؟ ولكن إذا قالت المترجمة إن ذلك ممكن، فمن الأفضل الثقة بكلامها ـ لأن اليابانيين يفون دائماً بوعودهم.

انتظرت بقلق طوال ما تبقّى من ذلك النهار، ركبنا سيارة أجرة، وأخذ كلُّ شيءٍ يبدو غريباً. توقّفنا في شارع لا بدّ أن الشمس لم تعرفه قطّ لأن جسراً ضخماً كان يمر من فوقه. أشارت المترجمة إلى بار في المنطقة الثانية في الطابق الثاني من بناء يتهاوى خَرِباً.

صعدنا الدرج، ودخلنا إلى البار الخاوي تماماً، وهناك كانت هوكي ميلر.

لكي أخفي دهشتي حاولتُ أن أبالغ في حماستي لزوجها السابق. أخذتني إلى غرفة في عمق البيت حيث صنعت متحفاً صغيراً. عدة صور وبعض اللوحات المائية الموقَّعة، وكتاب عليه إهداء، ولا شيء آخر. قالت لي إنها التقت به عندما كانت تعدّ رسالة الماجستير في لوس أنجلوس، ولكي تكسب حياتها، كانت تعزف على البيانو في أحد المطاعم وتغنّي أغانيَ فرنسية (باليابانية). أتى ميلر ليتعشّى في هذا المطعم، وأحبّ الأغاني (أمضى جزءاً كبيراً من حياته في فرنسا)، خرجا مرةً أو مرتين معاً، ثم طلبها للزواج.

رأيتُ أن في البار الذي أنا موجود فيه بيانو - وكأنها عادت إلى الماضي، إلى اليوم الذي التقيا فيه. روت لي أشياء جميلة عن حياتهما المشتركة، وعن المشكلات التي نشأت من الفارق في السن بينهما (كان عمر ميلر أكثر من خمسين سنة، وهي في العشرين تقريباً)، وعن الزمن الذي أمضياه معاً. قالت إن وَرَثَة الزيجات الأخريات أخذوا كل شيء، بما في ذلك حقوق مؤلف الكتب، ولكن ليس لذلك أهمية، وما عاشته يتجاوز التعويضات المالية.

طلبتُ إليها أن تعزف الموسيقا التي لفتت انتباه ميلر في تلك السنة. فعزفت وغنّت Les feuilles mortes والدموع تملأ عينيها.

تأثّرنا، المترجمة وأنا. البار والبيانو وصوت اليابانية الذي يرنّ على الجدران الخاوية، دون أن تنشغل بمجد الزوجات السابقات، ولا بطوفانات المال التي يمكن أن تدرّها كتب هنري ميلر، ولا بالشهرة العالمية التي يمكن أن تستمتع بها ذات يوم.

قالت في النهاية: «لم يكن الأمر يستأهل أن أقاتل من أجل الميراث، فقد كان الحب يكفيني». قالت ذلك بعد أن فهمت الشعور الذي انتابنا. نعم، نظراً لهذا الغياب الكامل للمرارة أو للحقد فهمتُ أن الحب كفاها.

عن أهمية النظرة

في البداية، كان ثيو فييرما مجرد شخص ملحاح. فخلال خمس سنوات، أرسَل دعوات دينية إلى مكتبي في برشلونة، ليدعوني إلى حديث في هايا، في هولندا.

وخلال خمس سنوات كان ردُّ مكتبي الدائم أن برنامجي كامل. في الواقع، لم يكن برنامجي كاملاً دائماً؛ ومع ذلك، ليس بالضرورة أن يكون الكاتب شخصاً يجيد التكلّم أمام الناس. بالإضافة إلى أن كل ما يمكن أن أقوله موجود في كتبي وفي الأعمدة التي أكتبها، لذلك أنا أحاول دائماً أن أتجنّب المؤتمرات.

علم ثيو أنني سأسجّل مقابلة مع إحدى القنوات التلفزيونية الهولندية. عندما نزلت من أجل التصوير كان ينتظرني في بهو الفندق. عرّفني بنفسه، ثم اقترح أن يرافقني قائلاً:

«أنا لستُ شخصاً لا يستطيع أن يسمع رفضاً. بل كل ما أعتقده هو أني شخص لا أحسن التصرّف لكي أبلغ هدفي».

يجب على الإنسان أن يناضل من أجل أحلامه، ولكن يجب أن يعرف أيضاً أن بعض الطرق عندما تبدو مستحيلة، فمن الأفضل الاحتفاظ بالطاقة من أجل السير في طرق أخرى. كان بوسعي أن أقول ببساطة: «لا» (فقد قلتُ هذه الكلمة وسمعتُها مراراً)، ولكني بحثتُ عن طريقة أكثر دبلوماسية: وضع شروط مستحيلة التطبيق.

قلتُ إني سأعطي المحاضرة مجاناً، ولكن على ألا تتجاوز تذكرة الدخول يوروين اثنين وأن تحوي الصالة في حدّها الأقصى مئتي شخص.

قبِل ثيو. فنبّهتُه:

«ستنفق أكثر مما ستكسب. أما فيما يخصّني فإن تذكرة الطائرة والفندق وحدهما سيكلّفان ثلاثة أضعاف ما ستجنيه إذا ما تمكّنتَ من ملء الصالة. وكذلك، هناك تكاليف الترويج وأجرة المكان...».

قاطعني ثيو قائلاً أن لا أهميةَ لهذا كلّه: إنه يفعل ذلك بسبب ما يراه في مهنته.

«أنا أنظّم أحداثاً لأني بحاجة إلى مواصلة الاعتقاد بأن الكائن البشري دائب البحث عن عالم أفضل. يجب أن أقدّم إسهامي لكي يكون ذلك ممكناً».

ماذا كانت مهنته؟

«أنا أبيع كنائس».

وأضاف وسط دهشتي الشديدة:

«أنا مكلَّف من الفاتيكان باختيار المشترين نظراً لأن هولندا تحوي كنائس أكثر مما تحوي مصلّين. وبما أننا مررنا في الماضي بتجارب سيئة جداً ـ رأينا أماكن مقدّسة تتحوّل إلى علب ليل، وإلى أبنية مشتركة الملكية ودكاكين، وحتى محلات سكس ـ شوب ـ فقد تغيّر نظام البيع. فالمشروع يجب أن توافق عليه الجماعة، وعلى المشتري أن يعلن عمّا سيفعل بالبناء: بصورة عامة نحن نقبل مقترحات تحوي مركزاً ثقافياً أو مؤسسة خيرية أو متحفاً.

«ماعلاقة هذا بمحاضرتك وبالمحاضرات الأخرى التي أنظّمها؟ الناس لم يعودوا يلتقون، ولا يستطيعون أن يتطوّروا».

ثم نظر إليّ بإمعان وختم قائلاً:

«لقاءات. لقد كان خطئي معك هو هذا بالضبط. بدلاً من أن أرسل إليك بريداً إلكترونياً، كان عليّ أن أبينّ مباشرةً أني من لحم ودم. ذات يوم عندما لم أحصل على جواب من أحد السياسيين، ذهبتُ وطرقتُ بابه، وقال لي: «إذا كنتَ تريد شيئاً عليكَ أن تُظهِر عينيكَ أولاً». منذ ذلك الحين وأنا أفعل ذلك، ولم أحصل إلا على نتائج طيبة. يمكننا أن نملك كافة وسائل الاتصال في العالم، ولكن لاشيء، لا شيء أبداً، يعادل نظر الإنسان».

طبعاً قبلتُ عرضه.

ملاحظة لاحقة: عندما ذهبتُ إلى هايا من أجل المحاضرة، ولمعرفتي بأن زوجتي الفنانة التشكيلية لطالما رغبت في فتح مركز ثقافي، فقد أحببتُ أن أرى بعض هذه الكنائس المعروضة للبيع. سألتُ عن سعر إحداها وكانت تتّسع لنحو خمسمائة مصلّ يوم الأحد: كانت تكلّف يورو واحداً، رغم أن تكاليف الصيانة يمكنها أن تتجاوز مستويات مرتفعة جداً.

جنكيز خان وصقره

في زيارة قريبة إلى كازاخستان، في آسيا الوسطى، سنحت لي الفرصة بأن أرافق صيادين يستخدمون الصقر كما يستخدمون السلاح. لا أريد أن أدخل هنا في نقاش حول «منع الصيد»، بل سأقول ببساطة في هذا المجال: إن الطبيعة هنا تكمل دورتَها.

لم يكن معي مترجم، وما كان يجدر به أن يكون مشكلةً صار منفعة. وبما أني لم أكن قادراً على التحدّث مع الصيادين، فقد كنتُ أكثر انتباهاً لما يفعلونه: رأيتُ موكبنا الصغير يتوقّف، والرجل الذي كان يحمل الصقر على ذراعه يبتعد قليلاً، ويسحب الواقية الفضية عن رأس الطائر. لا أعرف لماذا قرّر أن يتوقّف هنا، ولم يكن بوسعي أن أسأل.

طار الصقر ورسم عدة دوائر في الهواء، ثم انقضّ باتجاه واد سحيق ثم لم يتحرّك. عندما اقتربنا رأينا ثعلباً عالقاً بين مخالبه. والمشهد نفسه تكرّر مرةً أخرى خلال ذلك الصباح.

لدى عودتي إلى القرية التقيتُ بالناس الذين كانوا ينتظرونني، فسألتهم كيف يمكن تدجين الصقر لكي يفعل كل ما رأيته يفعله ـ بما في ذلك البقاء بوداعة على ذراع صاحبه (وعلى ذراعي أيضاً: فقد وضعوا لي سيوراً جلدية وتمكّنتُ من رؤية مخالبه عن كثب).

سؤال سخيف. ولا أحد يعرف الجواب: قيل لي إن هذا الفن ينتقل من جيل إلى جيل، والأب يعلّمه لابنه، وهكذا دواليك. ولكن

ستبقى محفورة على شبكيتي الجبال المغطّاة بالثلوج أمامي وخيال الحصان والفارس والصقر وهو يغادر ذراع صاحبه ثم ينقضّ كالسهم.

كذلك بقيت الحكاية التي رُويت لي أثناء الغداء.

ذات صباح، مضى القائد المغولي جنكيز خان وحاشيته في رحلة صيد. بينما كان مرافقوه يحملون أقواساً وسهاماً، كان جنكيز خان يحمل على ذراعه صقرَه المفضَّل ـ وكان أفضل وأدقّ من أي سهم ـ فقد كان يستطيع أن يرتفع عالياً في السماء ويرى ما لا يستطيع الإنسان أن يراه.

ومع ذلك، ورغم حماستهم الشديدة، لم يجدوا شيئاً. عاد جنكيز خان إلى معسكره خائباً. ولكن لئلا يفرّغ إحباطه على مرافقيه ابتعد عن الموكب وقرّر أن يسير وحيداً.

بقيا في الغابة زمناً أطول من المتوقَّع، وكاد جنكيز خان يموت ظمأً، فقد كانت الأنهار جافةً بسبب قيظ الصيف، ولم يجد ما يشربه. بعد ذلك حدثت معجزة! رأى أمامه ماءً يسيل من إحدى الصخور.

أطلق الصقر عن ذراعه مباشرةً، وتناول الكأس الفضي الذي كان معه، وأمضى وقتاً لا بأس به في ملئه، ولحظةَ رفعه إلى شفتيه، طار الصقر وانتزع الكأس من بين يديه ورماه بعيداً.

جُنّ جنون جنكيز خان، ولكنه كان حيوانه المفضّل، وربما كان عطشاناً، هو الآخر. تناول الكأس من جديد. ولكن ما إن امتلأ حتى منتصفه حتى انقضّ عليه الصقر ورماه ثانيةً.

كان جنكيز خان يحبّ طائره حتى العبادة، ولكنه لم يكن ليقبَل في أية حالٍ من الأحوال أن يُنتَقَص من احترامه؛ فقد يكون أحدٌ ما يراقب المشهدَ من بعيد، وقد يروي لجنوده فيما بعد أن القائد العظيم عجز عن ترويض مجرّد طائر.

هذه المرة استلّ سيفَه من غمده وأمسك بالكأس، وأعاد ملأه

مُبقياً عيناً على النبع وأخرى على الصقر. وما إن رأى أن هناك ما يكفي من الماء، تأهّب للشرب، فطار الصقرُ واتّجه نحوه. وبضربة سديدة اخترق جنكيز خان قلبه.

ولكن سيل الماء انقطع. قرّر أن يشرب بأية طريقة، فتسلّق الصخرة ليصل إلى النبع. وكم كانت دهشته كبيرةً! فقد وجد بركةَ ماءٍ بالفعل، ولكنه وجِد في وسطها إحدى أكثر الأفاعي سمّية في المنطقة. ولو أنه شرب الماء لكان قد غادر عالم الأحياء.

عاد جنكيز خان إلى المعسكر حاملاً بين ذراعيه الصقر الميت. وطلب أن يُصنع لهذا الصقر تمثالٌ من ذهب. ونقش على أحد جناحيه:

«صديقُك يبقى صديقَك حتى لو فَعَل ما لا يعجبك».

ثم كتب على الآخر:

«كل فعلٍ سبُبه الغضب عاقِبتُه الإخفاق».

النظر إلى حديقة الآخر

يقول المثل العربي: «أعطِ الغبي ألف فطنةٍ، فإنه لا يريد إلا فطنتك». بدأنا نزرع حديقة حياتنا، وعندما نظرنا جانباً رأينا أن جارنا واقف يترصّد. إنه عاجز عن فعل أي شيء كان، ولكنه يتلذّذ في التدخّل بالطريقة التي نبذر بها أفعالَنا والتي نغرس بها أفكارنا والتي نسقي بها نجاحاتنا.

إذا ما أعرنا انتباهنا لما يقوله، ينتهي بنا الأمر بأن نعمل له، وتكون حديقة حياتنا فكرةَ الجار. سوف ننسى أرضها المحروثة بكثير من العرق، والمخصّبة بكثير من البركات. وسوف ننسى أن لكل شبر من الأرض أسراره، وأن يد البستاني المتأنّية وحدَها يمكنها أن تكشف هذا السر. وسوف نكف عن الاهتمام بالشمس وبالمطر وبالفصول ـ لكي نركّز اهتمامنا فقط على هذا الرأس الذي يراقبنا من فوق السياج.

إن الأحمق الذي يحب التدخّل في حديقتنا لا يهتمّ أبداً بنباتاته.

علبة باندورا

في الصباح نفسه أتتني ثلاث إشارات من قارّات مختلفة: بريد إلكتروني من الصحافي لاورو جارديم، يطلب مني فيه أن أثبّت بعض المعلومات على دفتر ملاحظاتٍ يخصّني وذاكراً الوضع في روسينيا، في ريو دي جانيرو. واتصال هاتفي من زوجتي التي نزلت في فرنسا، فقد سافرت مع صديقين فرنسيين لكي تُريهما بلادنا، وعاد الاثنان خائفَين وخائبَين. وأخيراً الصحافي الذي أجرى معي مقابلةً للتو للتلفزيون الروسي: «هل صحيح أن أكثر من نصف مليون شخص في بلادكم ماتوا مقتولين بين عامي 1980 و2000؟

فأجبتُ مباشرةً:

ـ هذا غير صحيح».

ولكن بلى: لقد أراني معلومات صادرة عن «المعهد البرازيلي» (في الواقع هو Instituto brasileiro de geografia e Estatistica).

بقيتُ صامتاً. العنف في بلادي يجتاز المحيطات والجبال ليصل إلى هنا، في آسيا الوسطى. فماذا أقول؟

القول لا يكفي، لأن الكلمات التي لا تتحوّل إلى فعل «تحمل الطاعون»، كما كان يقول وليم بليك. حاولتُ أن أقوم بشيء: أنشأتُ معهدي، مع شخصين بطلين: إيزابيللا ويولاند مالتارولّي: حاولنا أن ننشر التربية والعطف والحب بين ثلاثمائة وستين طفلاً في مدينة الصفيح بافاو ـ بافاوزينيو. أعلم أن هناك آلافاً من البرازيليين

الذين يقومون في هذه اللحظة بأكثر من ذلك، ويعملون بصمت، دون مساعدة رسمية، ودون دعم خاص، فقط من أجل عدم الاستسلام لأسوأ الأعداء: اليأس.

أفكّر في بعض الأحيان أنه إذا قام كل شخص بعمله فستتغيّر الأمور. ولكن هذا المساء، بينما أنا أتأمّل الجبال المتجمّدة على الحدود الصينية، انتابتني الشكوك. فحتى لو قام كل شخص بعمله، فإن القول المأثور الذي تعلّمتُه طفلاً ما يزال صحيحاً: «ليس من حجة في وجه القوة».

أنظر من جديد إلى الجبال التي يُنيرها القمر، هل صحيح أن ليس هناك من حجّة أمام القوة؟ ككل البرازيليين، حاولتُ، وناضلتُ، واجتهدتُ في الاعتقاد أن وضع بلادي سوف يتحسّن ذات يوم، ولكن كل سنة تمر، تبدو الأمور أكثر تعقيداً، بمعزل عمن يحكم، وعن الحزب وبوجود الخطط الاقتصادية أو بغيابها.

رأيتُ العنف في أربع جهات العالم. أذكر أني ذات مرة، في لبنان، بُعيد الحرب التي دمّرته، كنتُ أتنزّه في شوارع بيروت المدمَّرة مع صديقتي سولا سعد. شرحت لي أن مدينتها قد دُمّرت سبع مرات. فسألتُها بنبرة ساخرة لماذا لا يكفّ سكانها عن إعادة بنائها ويسكنون في مكان آخر. أجابت مباشرةً: «لأنها مدينتنا. ولأن الإنسان الذي لا يقدّر المدينةَ التي دُفن فيها آباؤه وأجداده سوف يُلعن إلى الأبد».

الإنسان الذي لا يحترم أرضه يلفّه العار. في إحدى الأساطير اليونانية الكلاسيكية عن الخلق، غضب أحد الآلهة لأن بروميثيوس سرق النار وأعطاها للإنسان، أي منحه الاستقلال، فأرسل باندورا لكي تتزوّج من أخيه إبيميثيوس. كانت باندورا تحمل علبةً مُنعت من فتحها. ومع ذلك، وكما حصل مع حواء في الأسطورة المسيحية، كان فضولها أقوى: رفعت غطاء العلبة لترى ما تحويه، وفي تلك اللحظة، اندفعت شرور العالم كلها وانتشرت في أصقاع الأرض.

وحدَه، يبقى الأمل في الداخل.

فحتى لو قال الجميع عكس ذلك، وإني في هذه اللحظة شبه مقتنع أن لا شيء سيصطلح، ورغم حزني وشعوري بالعجز، لا أستطيع أن أفقد الشيء الوحيد الذي يحفظ الحياة: الأمل ـ هذه الكلمة التي طالما أثارت السخرية عند أشباه المثقّفين pseudo - intellectuels الذين يعدّونها مرادفةً لكلمة «خداع». هذه الكلمة التي طالما حرّفتها الحكومات التي راحت تغدق الوعود وهي تعرف أنها لن تنفّذها، وتمزّق القلوب أكثر. غالباً ما تكون هذه الكلمة معنا صباحاً، فتُجرَح خلال النهار وتموت مباشرة مع الليل، ولكنها ما تلبث أن تُبعث من جديد مع الفجر الوليد.

نعم هناك المثَل: «ليس من حجّة في وجه القوة».

ولكن هناك أيضاً مثلٌ آخر: «الأمل دائم مادامت الحياة». وأنا أحتفظ به بينما أنا أنظر إلى الجبال المكلّلة بالثلوج على الحدود الصينية.

كيف يمكن أن يوجد الكلُّ في الجزء؟

في اجتماع عند رسّام باولي(•) يعيش في نيويورك، كنا نتحدّث عن الملائكة والخيمياء. في لحظة معيَّنة، حاولتُ أن أشرح لبعض الضيوف الفكرة الآتية من الخيمياء بأن كل شخص منا يحتوي في داخله الكون بأكمله، وأنه مسؤول عنه.

في صراعاتي مع الكلمات، لم أجد الصورة الجيدة؛ لكنّ الرسام الذي كان يصغي اليّ بصمت دعا الجميع إلى النظر من نافذة محترفِهِ، وسأل:

- ماذا ترون؟

أجاب أحدهم:

- شارعاً في القرية.

ألصق الرسام ورقةً على زجاج النافذة بحيث أننا لم نعد نرى الشارع، وبمساعدة سكين قصّ مربّعاً صغيراً في الورقة، ثم قال:

- وإذا ما نظرنا الآن، فماذا سنرى؟

أجاب ضيفٌ آخر:

- الشارعَ نفسه.

صنع الرسام عدة مربّعات في الورقة وقال: «مثلما يحوي كل ثقب صغير في هذه الورقة الشارعَ نفسه، يحوي كلٌّ منا الكونَ نفسه».

فصفّق الحضور جميعاً لهذه الصورة الجميلة.

(•) عضو في تجمّع كاثوليكي تأسّس في نيويورك عام 1885، وسُمّي باسم القديس بولس.

الموسيقا الآتية من الكنيسة

يوم عيد ميلادي أهداني الكون هديةً أريد أن أتقاسمها مع قرّائي.

وسط الغابة، وقرب مدينة أزيريكس الصغيرة، في الجنوب الغربي من فرنسا، توجد هضبة صغيرة تكلّلها الأشجار. ودرجة الحرارة التي تدنو من 40 درجة، في صيف حصد ما يقارب الخمسة آلاف شخص في المشافي، ونحن ننظر إلى حقول الذرة الصفراء التي دمّرها الجفاف، لم تكن لدينا رغبة كبيرة في المشي. ومع ذلك قلتُ لزوجتي:

«ذات يوم، بعد أن تركتكِ في المطار، قرّرتُ أن أتنزّه في هذه الغابة. ألفيتُ الطريق جميلاً جداً، ألا تريدين التعرّف إليه؟».

نظرت كريستينا إلى نقطة بيضاء وسط الأشجار، وسألتني عنها.

«إنها كنيسة صغيرة».

قلت إن الطريق يمر من هناك، ولكن في المرة الوحيدة التي مررتُ من هناك كانت مغلقة. بما أننا معتادون، كما نعرف على الجبال والحقول، نعرف أن الله في كل مكان، وأنه من غير الضروري الدخول إلى بناء بناه الإنسان لكي نلتقيه. في أغلب الأحيان، خلال نزهاتنا الطويلة، كنا نصلّي بصمت، ونحن نصغي إلى أصوات الطبيعة، ونحن نفهم أن العالم غير المرئي يتجلّى دائماً في

العالم المرئي. بعد نصف ساعة من الصعود، ظهرت الكنيسة وسط الغابة، ولاحت معها الأسئلة الاعتيادية: من بناها؟ لماذا؟ ولأي قدّيس أو قدّيسة كُرّست؟

وكلّما اقتربنا كنا نسمع موسيقا وصوتاً أخذا يملآن الهواء من حولنا. قلتُ لنفسي وأنا أجد من المستغرَب أن يضع أحدهم الموسيقا لكي يجتذب الزوّار في درب قلّما يسلكه أحد: «عندما أتيتُ إلى هنا في المرة الماضية، لم يكن هناك من مكبّرات صوت».

ولكن بعكس ما حدث في زيارتي الأولى كان الباب مفتوحاً. دخلنا، فوجدنا أنفسنا وكأننا في عالم آخر: كانت الكنيسة مضاءةً بنور الصباح، وصورة للحمل الطاهر على المذبح، وثلاثة صفوف من المقاعد، وفي إحدى الزوايا كانت فتاة في نحو العشرين من عمرها، في أوج نشوتها، تعزف على القيثارة وعيناها مثبّتتان على الصورة أمامها.

أشعلتُ ثلاث شموع كما أفعل دائماً عندما أدخل أولَ مرة إلى كنيسة (من أجلي أنا، ومن أجل أصدقائي وقرّائي، ومن أجل عملي). ثم نظرتُ خلفي: سجّلت الصبيّة حضورنا بابتسامة ثم واصلت عزفها.

عند ذلك بدا إحساسُ الجنة هابطاً من السماوات، وكما لو أنها كانت تفهم ما يجيش في قلبي مزجت بين الموسيقا والصمت، وتصلي بين وقتٍ وآخر.

وسرعان ما أدركتُ أني أعيش إحدى اللحظات الخالدة من حياتي - هذا الإدراك الذي لا يمكننا أن نناله في معظم الأحيان إلا بعد أن تنتهي اللحظة السحرية. أنا هنا بكلّيتي، بلا ماضٍ وبلا مستقبل، أعيش هذا الصباحَ فقط، هذه الموسيقا، هذه العذوبة، هذه الصلاة غير المتوقَّعة. دخلتُ في نوعٍ من العبادة، من النشوة، وأنا أعترف أني على قيد الحياة. بعد كثير من الدموع، وهذا بدا لي

دهراً، استراحت الفتاة، نهضنا، أنا وزوجتي، وشكرناها، وقلتُ لها إني أرغب في أن أرسل إليها هدية على السكينة التي أرستها في نفسي. قالت إنها تأتي إلى هذا المكان كل صباح، وإن هذه هي طريقتها في الصلاة. أصررتُ على مسألة الهدية فترددت، ثم أعطتني أخيراً عنوان أحد الأديرة.

في اليوم التالي أرسلتُ إليها أحد كتبي، وبعد قليل من الوقت أتاني ردّها، فشرحت لي أنها خرجت من هذا المكان في ذلك اليوم وروحها مغمورة بالفرح لأن الزوج الذي دخل اندمج في العبادة وبمعجزة الحياة.

في بساطة هذه الكنيسة المتواضعة، وفي صوت الفتاة، وفي نور الصباح الذي كان يغمر كل شيء، فهمتُ مرةً أخرى أن عظمة الله تتجلّى دوماً عبر أشياء بسيطة. إذا ما مرّ أحد قرّائي بمدينة أزيريكس الصغيرة ورأى الكنيسة وسط الغابة فليمش إليها. وإذا كان ذلك صباحاً فستكون هناك فتاة وحيدةٌ تمجّد الخلقَ بالموسيقا.

مسبح الشيطان

كنتُ أنظر إلى مسبح طبيعي قرب مزرعة بابيندا في أوستراليا. فدنا مني أحد الهنود، وقال: «احذر ألا تسقط!».

كانت البحيرة الصغيرة مسوَّرة بالصخور، وبدَت آمنة، وأن من الممكن التنزّه عليها.

أضاف الصبي: «هذا المكان يُدعى مسبح الشيطان. منذ سنوات خلَت، وقعت أولونا، وهي فتاة هندية متزوّجة من محاربٍ من بابيندا، في حب رجلٍ آخر. هربا إلى هذه الجبال، لكن الزوج تمكّن من العثور عليهما. فرّ العشيق، لكن أولونا قُتلت هنا في هذه المياه.

«منذ ذلك الحين وأولونا تخلط بين جميع الرجال الذين يأتون إلى هنا مع حبّها الضائع، وتقتلهم بين ذراعيها المائيتين».

فيما بعد سألتُ صاحب الفندق الصغير عن موضوع مسبح الشيطان فأجاب:

«ربما كان ذلك نوعاً من التطيّر. ولكن في الحقيقة مات أحد عشر سائحاً خلال السنوات العشر الأخيرة، وكانوا جميعاً من الرجال».

الموت الذي كان يرتدي المنامة

قرأت على أحد مواقع الأخبار على الإنترنت: «في 10 حزيران 2004، وُجد في مدينة طوكيو ميتٌ يرتدي المنامة».

حتى الآن، عظيم جداً؛ وأنا أعتقد أن أغلبية الناس الذين يموتون وهم يرتدون المنامة إما أن يكونوا:

أ ـ قد ماتوا أثناء نومهم، وهذه حسنة.

ب ـ أو مع أقاربهم أو على سرير المستشفى ـ الموت لم يأتِ بعنف ـ وكان للجميع الوقت للاعتياد على «غير المرغوب فيه»، كما سمّاه الشاعر البرازيلي مانويل بانديرا.

ويتابع الخبر: «وعندما توفّي كان في غرفة نومه». إذاً تستبعَد فرضية المشفى، وتبقى لنا فرضية أن يكون قد مات أثناء نومه، دون ألم، بل دون أن يدرك أنه لن يرى النور في اليوم التالي.

ولكن يبقى احتمال: اعتداء تبِعَته وفاة.

من يعرفون طوكيو يعرفون أن هذه المدينة العملاقة هي في الوقت نفسه إحدى أكثر المدن أماناً في العالم. أذكر أني توقّفتُ ذات مرة لكي أتعشّى مع ناشريّ قبل أن نستأنف رحلتنا نحو وسط اليابان ـ جميع حقائبنا كانت مرئية في المقعد الخلفي للسيارة. قلتُ بسرعة إن ذلك خطر جداً، من المؤكد أن أحداً ما سيمرّ ويراها، ويختفي مع ثيابنا ووثائقنا، إلخ. ابتسم ناشري وقال لي ألا أقلق،

فهو لم يعرف حالة مشابهة طوال حياته (في الواقع، لم يحدث شيء لأمتعتنا، رغم أني بقيتُ متوتّراً طوال العشاء).

ولكن لنعد إلى ذلك الموت في المنامة: لم يكن هناك أية علامة على صراع أو عنف أو أي شيء من هذا القبيل. صرّح أحد ضباط الشرطة في العاصمة في مقابلة مع الصحيفة أنه كان شبه متأكّد أن الرجل مات موتاً مفاجئاً في نوبة قلبية. وبالتالي لنستبعد أيضاً فرضية القتل.

اكتشف الجثةَ عمال إحدى مشاريع البناء، في الطابق الثاني من البناية، في شقة سكنية كانت آيلة للسقوط. كل شيء كان يدعونا إلى التفكير بأن ميتنا في المنامة، وبسبب استحالة إيجاد مكان يعيش فيه في أكثر مدن العالم اكتظاظاً بالسكان وغلاءً، قرّر بكل بساطة أن يستقرّ في مكان لا يدفع عنه أجراً.

هنا يأتي الجزء المأساوي في القصة: لم يكن ميتنا إلا هيكلاً عظمياً يرتدي منامة. وإلى جانبه وجدت صحيفة مفتوحة، ومؤرخة في 20 شباط 1984 على طاولة قريبة، وكانت الرزنامة تدلّ على التاريخ نفسه.

وهذا يعني أنه هنا منذ عشرين سنة.

ولم يبلّغ أحد عن غيابه.

حُدّدت هوية الشخص، وكان موظفاً سابقاً في الشركة التي كانت قد بنت الوحدة السكنية، حيث استقرّ منذ عام 1980، على أثر طلاقه. وكان عمره أكثر من خمسين عاماً بقليل يومَ غادر هذا العالم وهو يقرأ الصحيفة.

لم تقلق عليه زوجتُه السابقة أبداً. وعندما قُصدت الشركة التي كان يعمل فيها اكتُشف أنها أفلست بعد انتهاء الأعمال بقليل لأن أية شقة لم تُبَع؛ وكذلك فإن الرجل الذي لم يكن يحضر لممارسة نشاطاته اليومية لم يفاجئ أحداً. بُحث عن أصدقائه فعزوا غيابه إلى أنهم

طالبوه ببعض المال الذي كانوا قد سلّفوه إياه، ولم يكن قادراً على تسديده.

ويتابع الخبر قائلاً إن بقاياه سلّمت لزوجته السابقة. أنهيتُ قراءتي للمقال، وفكّرتُ في هذه العبارة الأخيرة: كانت الزوجة السابقة ما تزال على قيد الحياة، ومع ذلك لم تسعَ خلال عشرين سنة للقاء زوجها السابق. فماذا يمكن أن يكون قد خطر ببالها؟ أنه لم يعد يحبّها وأنه قرّر أن يُبعدها من حياته إلى الأبد. وأنه التقى بامرأة أخرى، ثم اختفى دون أن يترك أثراً. وأن الحياة هي هكذا، ما إن تنتهي معاملة الطلاق، وأن لا معنى أبداً لمواصلة علاقة انتهت شرعياً. تخيّلتُ ما يمكن أن تكون قد شعرت به عندما علمت بخبر وفاة الرجل الذي قاسمته جزءاً كبيراً من حياتها.

وبعد ذلك فكّرتُ في الميت في منامته، وفي وحدته المطلقة، السحيقة إلى درجة أن أحداً في هذا العالم لم يفكّر طوال عشرين سنة أن هذا الشخص قد اختفى دون أن يترك أثراً. وخلصتُ إلى النتيجة أن ما هو أقسى من الجوع والعطش والبطالة والألم والحب ويأس الهزيمة، وما هو أسوأ من هذا كله إنما هو أن نشعر أن لا أحد يهتمّ بنا.

لنصلِّ في هذه اللحظة صلاةً صامتة من أجل هذا الرجل، ولنشكره لأنه جعلنا نفكّر بأهمية أصدقائنا.

الجمرة الوحيدة

كان جوان يمارس أسبوعياً صلاة الأحد في الكنيسة القريبة من سكنه. ولكن بعد أن وجد شيئاً فشيئاً أن الكاهن يكرّر دائماً الكلام نفسه، كفَّ عن ارتياد الكنيسة.

بعد شهرين، وفي ليلة شتوية باردة، زاره الكاهن، فقال لنفسه:

«مما لا شك فيه أنه أتى محاولاً أن يقنعني بالعودة». تخيّل أنه لا يستطيع أن يصرّح بالسبب الحقيقي: المواعظ المكرورة. ويجب عليه أن يجد عذراً. وبينما كان يفكّر وضَعَ كرسيين أمام المدفأة، ثم أخذ يتحدّث عن الطقس.

لم يفُه الكاهن بكلمة. وبعد أن حاول جوان عبثاً أن ينعش الحديث، صمت بدوره. وبقي الاثنان صامتين، يتأملان النار، ما يقارب نصف الساعة.

نهض الكاهن، وبمساعدة غصن شجرة لم يحترق بعد، أبعد جمرةً عن النار.

وبما أن هذه الجمرة لم يعد لديها ما يكفي من الحرارة، أخذت تتخامد، فأعادها جوان بسرعة إلى وسط النار.

نهض الكاهن ليخرج ثم قال: «طابت ليلتك».

فأجاب جوان:

- طابت ليلتك، شكراً لك.

ـ مهما كانت الجمرة متلظّية فإنها ستنطفئ بعيداً عن النار.

ـ ومهما كان الإنسان ذكياً، فإنه لا يستطيع أن يحافظ على حرارته ولهيبه بعيداً عن أخوته. سوف أعود إلى الكنيسة الأحد القادم.

مانويل رجلٌ مهم وضروري

يجب أن يكون مانويل مشغولاً، وإلا فإنه يرى أن حياته لا معنى لها، وأنه يضيّع وقته، وأن المجتمع ليس بحاجة إليه، وأن لا أحد يحبّه، ولا أحد يريده.

بالتالي، ما إن يستيقظ، حتى يكون لديه سلسلة من المهام عليه القيام بها: مشاهدة أخبار التلفزيون (فقد يكون أمرٌ ما قد حَدَث أثناء الليل)، ويقرأ الجريدة (فقد يكون أمرٌ ما قد حدث في المساء)، ويرجو زوجته ألا تدع الأولاد يتأخرون عن مدارسهم، ويستقل سيارته أو سيارة أجرة أو حافلةً أو المترو، فإنه مركّزٌ دائماً، ينظر إلى الفراغ، ينظر إلى ساعته، وإن استطاع يُجري عدة اتصالات من جهازه المحمول، ويتصرّف دائماً بحيث يرى الجميع أنه رجل مهم ومفيد للناس.

يصل مانويل إلى عمله، يعكف على كومة الأوراق التي تنتظره. إذا كان موظّفاً، فإنه يفعل ما بوسعه لكي يلاحظ مديرُه أنه يصل في الوقت المطلوب. وإذا كان رب عمل فإنه يضع الناس جميعاً في العمل مباشرةً؛ وإذا لم يكن هناك من مهمة هامة منتظِرة فإن مانويل يطوّرها، ويخلقها ويُعدّ مشروعاً جديداً، ويُقيم خطوط فعلٍ جديدة.

يذهب مانويل إلى الغداء، ولكنه لا يذهب وحيداً أبداً. إذا كان رب عمل فإنه يجلس مع أصدقائه، ويناقش الاستراتيجيات الجديدة، ويتحدّث بسوء عن منافسيه، ويُبقي دائماً ورقةً في كمّه، ويتذمّر (بنوع من الفخر) من إرهاق العمل. وإذا كان مانويل موظّفاً فإنه

يجلس مع أصدقائه أيضاً، ويتذمّر من مديره، ويقول إنه يشتغل ساعات إضافية كثيرة، ويؤكّد بيأس (وبفخر عظيم) أن أشياء كثيرة في المؤسّسة متعلّقة به.

مانول ـ رب عمل أو موظف ـ يعمل طوال بعد الظهر. ينظر إلى ساعته بين وقتٍ وآخر، لقد اقترب موعد الذهاب إلى البيت، ولكن يبقى تفصيل يجب حلّه هنا، أو وثيقة يجب توقيعها هناك. إنه رجل شريف، يجب أن يعمل ما بوسعه لكي يجعل الأجر الذي يتقاضاه حلالاً ويكون عند حسن ظن الآخرين، ويحقّق أحلام أبويه اللذين بذلا جهوداً شاقة لتربيته التربيةَ الضرورية.

وأخيراً يعود إلى بيته، يستحم ثم يرتدي لباساً مريحاً ويتعشّى مع أسرته. يسأل عن وظائف أولاده، وعن نشاطات زوجته. يتحدّث عن عمله بين الفينة والأخرى، لكي يعطي القدوة فقط ـ فهو لم يعتَدْ على حمل هموم عمله إلى البيت. وبعد انتهاء العشاء، ينهض الأولاد ـ الذين يسخرون جداً من القدوات والواجبات ومن كل شيء من هذا القبيل ـ ويسارعون إلى الجلوس أمام الحاسوب. ومانويل أيضاً يذهب ليجلس أمام ذلك الجهاز العتيق منذ أيام طفولته: المسمّى التلفاز. يشاهد الأخبار من جديد (فقد يكون أمرٌ ما قد حدث بعد الظهر).

يذهب إلى النوم دائماً ومعه كتاب تقني ليقرأه على طاولة النوم ـ سواء أكان رب عملٍ أو موظّفاً ـ فهو يعرف أن المنافسة ضارية، وأن من لا يتأهّب لها يتعرّض لخطر فقدان وظيفته ولوجوب مواجهة أسوأ اللعنات: أن يبقى غير مشغول.

يتحدّث قليلاً مع زوجته ـ فهو في النهاية رجل لطيف، وشغّيل، وعطوف، يعتني بأسرته، وهو مستعد للدفاع عنها في جميع الظروف. سرعان ما يغلبه النعاس، فينام وهو يعلم أنه سيكون مشغولاً جداً في اليوم التالي، وأن عليه أن يجدّد نشاطه.

في تلك الليلة يحلم مانويل، يسأله أحد الملائكة: «لماذا تفعل هذا؟» فيجيب بأنه رجل مسؤول.

ويضيف الملاك: «هل ستكون قادراً على أن تتوقّف قليلاً أثناء النهار، ولو ربع ساعة، وتنظر إلى الناس، إلى نفسك، أو ببساطة أن لا تفعل شيئاً؟» يقول مانويل إنه يتمنّى ذلك، ولكن ليس لديه الوقت. يسأله الملاك: «هل تسخر مني؟ فالجميع لديهم الوقت، ولكن ما ينقصهم هو الشجاعة. العمل حسنة عندما يساعدنا على التفكير فيما نقوم به. ولكنه يغدو لعنةً عندما لا يكون له أية فائدة سوى أن يمنعنا من التفكير في معنى حياتنا».

يستيقظ مانويل وسط الليل، والعرق البارد يتصبّب منه. شجاعة؟ كيف ذلك، كيف لرجل يضحّي بنفسه من أجل أهله ألا يملك الشجاعة للتوقّف ربع ساعة؟

من الأفضل له أن يعود إلى النوم، فما هذا كله إلا حلم، وهذه الأسئلة لا تُفضي إلى شيء، وغداً سيكون مشغولاً جداً، جداً.

مانويل رجل حر

طوال ثلاثين سنة، مانويل يعمل بلا توقّف، ويربّي أولاده ويمنحهم القدوة، ويكرّس جل وقته للعمل ولا يسأل أبداً: «هل ماأقوم به له معنى؟» وهمّه الوحيد هو أنه كلما كان مشغولاً كلما كان مهمّاً في نظر المجتمع.

كبر أبناؤه وغادروا البيت، حصل على ترقية، وقُدّمت له ساعة يدٍ أو قلم حبر مكافأةً له على سنوات إخلاصه كلّها. سكب أصدقاؤه بعض الدموعِ، ثم أتت اللحظة التي طالما انتُظرت: ها قد صار متقاعداً، حراً في أن يفعل ما يحلو له.

في أشهره الأولى كان يعود بين وقتٍ وآخر إلى مكتبه القديم، ويتحدّث مع أصدقائه القدامى، ويمنح نفسه متعةً طالما حلم بها: أن يستيقظ متأخّراً. كان يتنزّه على الشاطئ أو في المدينة. وكان لديه بيتٌ في الريف اشتراه بعرق جبينه. اكتشف البستنة ودخل شيئاً فشيئاً في أسرار النباتات والأزهار. فلدى مانويل وقت، لديه وقت العالم كلّه. سافر بفضل مبلغ من المال كان قد وضعه جانباً. زار متاحف، وتعلّم خلال ساعتين ما أنفق الرسامون والنحّاتون من العصور المختلفة قروناً على تطويره، ولكن على الأقل، تولّد لديه شعور بتنمية ثقافته. التقط مئات بل آلاف الصور وأرسلها إلى أصدقائه ـ ففي النهاية يجب أن يعرفوا أنه سعيد!

مرّت أشهرٌ أخرى، وتعلّم أن الحديقة لا تتبع بالضبط قواعدَ الإنسان نفسها، ما غرسه سوف ينمو ببطء، ولا فائدة من النظر إذا

كانت شجرة الورد قد أزهرت. وفي لحظة تفكير صادقة، اكتشف أنه لم يرَ إلا منظراً واحداً خارج الحافلة السياحية، ولحظاتٍ رتّبها اليومَ في صور 6X9، ولكنه لم يشعر في الواقع بأي شعور خاص ـ بل كان يقلق من سرد مغامرته لأصدقائه أكثر من أن يعيش التجربة السحرية في أن يجد نفسه في بلد أجنبي.

واصَلَ مشاهدة جميع نشرات الأخبار المتلفزة، وأكثَرَ من قراءة الصحف (لأن لديه كثيراً من الوقت)، وصار يعدّ نفسَه شخصاً واسع الاطّلاع، وقادراً على مناقشة أمورٍ لم يكن لديه الوقت لدراستها في السابق.

بحث عن شخص يشاركه آراءه، ولكنهم كانوا جميعاً غارقين في نهر الحياة، يعملون، يفعلون شيئاً ما، ويحسدون مانويل على حريته، وفي الوقت نفسه سعداء لكونهم يقدّمون الفائدة لمجتمعهم و«منشغلين» بنشاط مهم.

بحث مانويل عن الراحة قرب أبنائه. ما زال هؤلاء يعاملونه بلطف ـ فقد كان أباً ممتازاً، وقدوةً في الإخلاص ـ ولكن كان لهم، هم أيضاً، همومهم، حتى لو تكلّفوا عناء المشاركة في غداء يوم الأحد.

مانويل رجل حر، في وضع مالي معقول، مطّلع، له ماضٍ لا غبار عليه، ولكن الآن؟ ماذا يفعل بهذه الحرية المكتسبة بقسوة شديدة؟ الناس جميعاً يهنّئونه، ويمتدحونه، ولكن لا أحد يملك وقتاً من أجله. شيئاً فشيئاً أخذ مانويل يشعر بالحزن، بقلة الفائدة ـ رغم كل هذه السنوات في خدمة الناس وخدمة أسرته.

ذات ليلة، ظهر له ملاك في حلمه وسأله: «ماذا فعلتَ في حياتك؟ هل سعيتَ إلى أن تعيشها على وئام مع أحلامك؟».

استيقظ مانويل والعرق البارد يتصبّب منه. أية أحلام هذه؟ كان حلمه: أن يحصل على الشهادة ويتزوّج وينجب أطفالاً، يربّيهم

ويتقاعد ويسافر. فلماذا يطرح عليه الملاك أسئلةً أخرى ليس لها معنى؟

بدأ نهار جديد طويل. الصحف والأخبار على التلفاز. الحديقة، الغداء. النوم قليلاً، القيام بما يريد - وفي تلك اللحظة اكتشف أنه لا يرغب في شيء. مانويل رجل حر وحزين، على شفا الانهيار لأنه كان مشغولاً جداً في التفكير في معنى حياته، في حين أن السنوات كانت تجري على الجسر. تذكّر أبيات أحد الشعراء: «لقد اجتاز الحياة، ولم يعشها».

ولكن بما أن الوقت قد فات لكي يقبل ذلك، من الأفضل تغيير الموضوع. الحرية المكتسَبة بقسوة كبيرة، ما هي إلا منفى مقنَّع.

مانويل يذهب إلى الجنة

وأخيراً، انتهى الأمر بصديقنا مانويل الشريف والمخلص بأن مات ذات يوم - الأمر الذي يحصل مع كل المانويلات والباولات والماريات والمونيكات في الحياة. وهنا، أترك الكلام لهنري دروموند، في كتابه الرائع *«دون الأعلى»*، لكي أصف ما سيحدث فيما بعد.

في لحظة معينة، طرَحنا جميعاً على أنفسنا السؤالَ الذي تطرحه كل الأجيال على نفسها:

ما هو الشيء الأهم في حياتنا؟

نريد أن نستخدم أيامنا أفضل استخدام ممكن، لأن أي أحد آخر لا يستطيع أن يعيش من أجلنا. لذا يجب علينا أن نعرف أين نوجّه جهودنا، وما هو الهدف الأسمى الذي يجب بلوغه.

لقد تعوّدنا أن نسمع أن الكنز الأكبر في الحياة هو الإيمان. وعلى هذه الكلمة البسيطة استندت قرونٌ من الدين.

هل نعدّ الإيمان الشيءَ الأهم في العالم؟ حسنُ، إننا مخطئون تماماً.

يُعيدنا القديس بولس إلى الأزمنة الأولى من المسيحية في رسالته إلى الكورنثيين، الإصحاح الثالث عشر، ويختم قائلاً: «أما الآن فيثبتُ الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة».

ليس هذا رأياً سطحياً لبولس الرسول، قائل هذه العبارات. ففي النهاية، لقد تكلّم سابقاً عن الإيمان في الرسالة نفسها قائلاً: «وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال ولكن ليس لي محبة فلستُ شيئاً».

بولس لم يتهرّب من الموضوع، بل على العكس، لقد قارن بين الإيمان والمحبة، وختم قائلاً: «(...) المحبة أعظم».

ويعطينا متّى وصفاً تقليدياً ليوم الحساب: «ابن الإنسان [...] يجلس على كرسي مجده [...] ويميّز الشعوب بعضهم من بعض، كما كما يميز الراعي الخراف من الجِداء».

في تلك اللحظة، لن يكون السؤال الكبير للإنسان: «كيف عشتُ؟»، بل سيكون: «كيف أحببتُ؟».

سيكون الحبُّ الامتحانَ الأخير لكل بحثٍ عن الخلاص. ولن تؤخذ بالحسبان أفعالنا ولا معتقداتنا ولا نجاحاتنا.

لن نحاسَب على هذا كلّه، بل سوف نحاسَب على الطريقة التي أحببنا بها قريبَنا.

سوف تُنسى الأخطاء التي ارتكبناها، وسوف نُحاسَب على الخير الذي فعلناه. لأن الاحتفاظ بالحب سجينَ النفس، هو الذهاب لملاقاة روح الله، هذا هو البرهان الذي لم نعرفه قطّ، والبرهان على أنه أحبَّنا عبثاً، وعلى أن ابنه مات بلا فائدة.

في هذه القصة ينجو مانويلنا لحظة وفاته لأنه كان قادراً على الحب، وعلى الاهتمام بأسرته، وعلى أن يقوم بعمله بكرامة، رغم أنه لم يمنح حياتَه أي معنى. ومع ذلك، حتى لو كانت النهاية سعيدة، فإن أيامه على الأرض كانت معقّدة جداً.

وهذا يذكّرني بجملة قالها شيمون بيريس في منتدى دافوس الاقتصادي: «المتفائل سينتهي بالموت، مثله مثل المتشائم، ولكنّ الاثنين استفادا من الحياة بطريقة مختلفة جداً».

محاضرة في ملبورن

كانت تلك مشاركتي الأهم في مهرجان الكتّاب. كانت الساعة العاشرة صباحاً، والجمهور أخذ أماكنه، وسيُجري المقابلةَ معي كاتب محلّي يُدعى جون فلتون.

مشيتُ نحو المنصة بالقلق المعتاد، قدّمني فلتون ثم بدأ يطرح الأسئلة. وقبل أن أتمكّن من إنهاء فكرة معينة، كان يقاطعني ويسأل سؤالاً جديداً. وعندما أجيب كان يقدّم تعليقاً من قبيل: «هذا الجواب لم يكن واضحاً جداً». وبعد خمس دقائق سادَ الجمهورَ نوعٌ من الاستياء ـ فقد فهم الجميع أن هناك أمراً ليس على ما يُرام. تذكّرتُ كونفوشيوس، وفعلتُ الشيءَ الوحيد الممكن، سألته: «ألا تحب ما أكتبه؟».

فأجاب:

ـ ليست هذه هي المشكلة. أنا من يسألك وليس العكس.

ـ إذا كانت هذه هي المشكلة فأنتَ لا تتركني أنهي فكرةً واحدة، ولقد قال كونفوشيوس: «كن واضحاً، كلما كان ذلك ممكناً». سوف نتبع هذه النصيحة ونوضح الأمور: هل تحب ما أكتبه؟

ـ لا، لم أقرأ إلا كتابين، ولقد كرهتهما.

ـ أوكي. إذن يمكننا أن نكمل.

لقد تحدّدت الملاعب الآن، وانفرج الجمهور، وانشحن الجو بالكهرباء، وغدت المقابلة نقاشاً حقيقياً، وبدا الجميع ـ بما في ذلك فلتون ـ راضياً عن النتيجة.

عازف البيانو في المركز التجاري

كنتُ أتنزّه ساهماً في أحد المراكز التجارية، برفقة صديقتي عازفة الكمان أورسولا التي ولدت في هنغاريا، وهي الآن نجمة في فرقتي أوركسترا فيلهارموني عالميتين. فجأةً، أمسكت بذراعي وقالت: «استمع!».

أصغيتُ. فسمعتُ أصوات رجال وصرخات أطفال، وأصوات جهاز تلفزيون مشغّل في محلات الأدوات الكهربائية المنزلية، ووقعَ أكعاب على البلاط، وتلك الموسيقا العتيدة المنتشرة في المراكز التجارية في العالم كافة. سألتني:

ـ أليس هذا رائعاً؟

أجبتُ أني لم أسمع شيئاً رائعاً أو غير عادي.

قالت وهي تنظر إليّ نظرةً خائبة: «البيانو! عازف البيانو رائع!».

ـ لا بدّ أن ذلك تسجيل.

ـ لا تتفوّه بحماقات!

إذا ما أنصتّ بانتباه أكثر فمن البدهي أن تكتشف أن هذا العزف مباشر. العازف يعزف الآن سوناتا لشوبان. والآن، بعد أن تمكّنتُ من التركيز، بدا العزف يغطّي كل الضجيج الذي يحيط بنا. مشينا في الممرات المكتظّة بالزوّار، وبالمحلات وبالعروض وبالأشياء التي يمتلكها الجميع بحسب الدعاية إلا أنا وأنتم.

وصلنا إلى المكان المخصّص للأطعمة: وجدنا أناساً يأكلون ويتحدّثون ويقرؤون الصحف؛ وإحدى تلك الإغراءات التي يعمد كل مركز إلى تقديمها لزبائنه: هذه المرة، بيانو وعازف.

عزف سوناتتين أخريين لشوبان، ثم لشوبيرت ثم لموزارت. يبدو في الثلاثين من عمره، وكانت لوحةٌ موضوعة قرب المنصّة الصغيرة تبيّن أنه عازف شهير من جورجيا، وهي إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق. لا بدّ أنه بحث عن عمل فأوصدت الأبواب في وجهه، وفقد الأمل، واستسلم، وها هو الآن هنا.

ولكني لستُ واثقاً من أنه هنا حقاً؛ فقد كانت عيناه تتمعّنان العالمَ السحري الذي أَلّفت فيه هذه القطع؛ وبيديه يتقاسم مع الجميع حبّه وروحه وحماسته، وأفضل ما لديه، وسنوات دراسته، وتركيزه وانضباطه.

الشيء الوحيد الذي يبدو أنه لم يفهمه هو أن لا أحد، لا أحد أبداً، أتى إلى هنا لكي يستمع إليه؛ فقد أتوا ليشتروا وليأكلوا ويتسلّوا ويشاهدوا الواجهات وليلتقوا بأصدقائهم. توقّف رجلٌ وامرأة بجانبنا وأخذا يتحدّثان بصوت عال، ثم ذهبا بسرعة. لم يرَ العازف شيئاً ـ فهو ما يزال في حديث مع ملائكة موزارت ـ كما إنه لم يرَ أن جمهوره مكوّن من شخصين، وأن أحدهما عازفة كمان موهوبة، كانت تستمع إليه وقد طفرت الدموع من عينيها.

تذكّرتُ كنيسةً دخلتُ إليها ذات يوم بالمصادفة والتقيت فيها فتاةً تعزف لله، ولكني كنتُ في كنيسة، وكان لذلك معنى. أما هنا فلا أحد يستمع، ولا حتى الله.

كذب، فالله يستمع. الله في روح هذا الرجل وبين يديه لأنه يهب أفضل ما لديه، بغضّ النظر عن أي عرفان أو أي مال سيأخذه. إنه يعزف وكأنه في سكالا في ميلانو أو في الأوبرا في باريس. يعزف لأن هذا هو قدره وفرحه ومسوّغ حياته.

تملّكني شعورٌ بالإجلال العميق، وبالاحترام لرجلٍ يذكّرني في هذه اللحظة بدرس في غاية الأهمية: لديك أسطورة شخصية يجب أن تنجزها، نقطة انتهى. لا يهم إن كان الآخرون يساعدون أم ينقدون أم يجهلون أم يتسامحون - أنت تقوم بذلك لأنه قدرك على هذه الأرض، ومنبع كل فرح.

أنهى العازف عزف قطعة أخرى لموزارت، ثم تنبّه لوجودنا لأول مرة. حيّانا بإيماءة خفيّة ومهذّبة من رأسه، ورددنا بمثلها. ولكن سرعان ما عاد إلى فردوسه، ومن الأفضل لنا أن نتركه هنا، إذ لم يعد من شيء في هذا العالم يؤثّر فيه، ولا حتى تصفيقنا. إنه قدوة لنا جميعاً. عندما نؤمن أن لا أحد يعير انتباهاً لما نفعله، فلنفكّر بهذا العازف: كان يتحدّث مع الله عبر عمله، والباقي لم يكن له أدنى أهمية.

على الطريق
إلى معرض الكتاب في شيكاغو

كنتُ ذاهباً من نيويورك إلى شيكاغو لكي أزور معرض كتاب الـ أمريكان بوكسللرز أسوسييشن American booksellers association.

فجأةً نهض صبي في ممر الطائرة وقال:

«أنا بحاجة إلى اثني عشر متطوّعاً، ليحمل كل منهم وردةً عندما تحطّ بنا الطائرة».

رفع عدةُ أشخاص أيديهم، وفعلتُ مثلهم، ولكن خياره لم يقع عليّ.

ومع ذلك قرّرتُ أن أرافق المجموعة. نزلنا، وأشار الصبي إلى شابة في قاعة الانتظار في مطار أوهير. أخذ الركاب يناولونها ورداتهم الواحد تلو الآخر. أخيراً طلبها الصبي للزواج أمام الجميع - وقبلت.

وقال لي أحد المفوّضين في المطار:

«هذا هو الشيء الأكثر رومانسية الذي يحدث في هذا المطار منذ أن عملتُ فيه».

عصي وقواعد

في إحدى ليالي خريف عام 2003، كنتُ أتنزّه وسط ستوكهولم. رأيتُ امرأةً تمشي مع عصي تزلّج، فكانت ردّة فعلي الأولى أن عزوتُ ذلك إلى أذيّة لا بدّ أنها تعرّضت لها، ولكني لاحظتُ أنها كانت تسير بسرعة، بحركات موزونة، وكأنها على بيدر من الثلج - ولم يكن حولنا إلا أسفلت الشوارع. كانت النتيجة واضحة: «هذه المرأة مجنونة، فكيف لها أن تتظاهر بأنها تتزلّج وهي وسط المدينة؟».

لدى عودتي إلى الفندق، رويت القصة لناشري فقال لي إن المجنون هو أنا: فما رأيتُه كان نوعاً من التمرين المعروف باسم «المشي الشمالي nordic walking». وقال: بالإضافة إلى الساقين تُستخدَم الذراعان والكتفان وعضلات الظهر، الأمر الذي يعطي تمريناً أكثر كمالاً.

إن نيّتي عندما أمشي (وهو ما يكون مع الرمي بالقوس، رياضتي المفضّلة) هي أن أفكّر وأنظر إلى العجائب التي تحيط بي، والتحدّث مع زوجتي أثناء نزهاتنا. وجدتُ تعليق ناشري مفيداً، ولكني لم أعِرْ الأمر كثيراً من الانتباه.

وذات يوم، بينما كنتُ في أحد محلات الأدوات الرياضية لأشتري أدوات لسهامي، لمحتُ عصياً جديدة يستخدمها هواة الجبال - خفيفة من الألمنيوم، تنفتح وتنغلق بمساعدة نظام تلسكوبي كالحامل الثلاثي لآلة التصوير الفوتوغرافي. تذكّرت ذلك «المشي الشمالي»: لماذا لا أجرّبه؟ اشتريتُ زوجين، واحداً لي وآخر

لزوجتي. ضبطنا العصي على ارتفاع مناسب، وفي اليوم التالي قرّرنا أن نستخدمها.

كان اكتشافاً عجيباً! كنا نصعد أحد الجبال وننزله ونحن نشعر بأن جسمنا كلّه يتحرّك بالفعل، أفضل توازناً، وأقل تعباً. قطعنا ضعفَ المسافة التي كنا نقطعها عادةً خلال ساعة. تذكّرتُ أني حاولتُ ذات يوم أن أستكشف نبعاً جافّاً، ولكن كانت حجارة قاعه تسبّب لي كثيراً من المصاعب بحيث أني تخلّيتُ عن الفكرة أخيراً. فكرتُ أن الأمر سيكون أكثر سهولة مع هذه العصيّ، وكان ظني صحيحاً.

ذهبت زوجتي لفتح الإنترنت واكتشفت أن هذا النشاط يسمح بحرق 46% من الحريرات أكثر من المشي العادي. تحمّست للفكرة، وصار المشي الشمالي منذ ذلك الحين جزءاً من نشاطنا اليومي.

وذات ظهيرة، من باب التسلية، أردتُ أن أرى على الإنترنت ماذا يوجد حول هذا الموضوع، فاكتشفتُ شيئاً مريعاً: رأيتُ صفحات وصفحات واتحادات ومجموعات ونقاشات ونماذج و... قواعد.

لستُ أدري ما الذي دفعني إلى فتح إحدى الصفحات عن القواعد. كلما تقدّمتُ في القراءة ازداد هلعي: لقد كنتُ أقوم بكل شيء بطريقة خاطئة! كان يجب أن تُضبط عصيّ بصورة أعلى، ويجب أن تخضع لإيقاع أكثر تحديداً، ولزاوية استناد محدّدة، وكانت حركة الكتف أكثر تعقيداً، وثم طريقة أخرى لاستخدام المرفق، ولم أرَ إلا مبادئ قاسية وتقنية دقيقة.

طبعتُ الصفحات كلها. وفي اليوم التالي - والأيام التالية - حاولتُ أن أنفّذ بالضبط ما يأمر به المختصّون. فأخذ المشي يفقد اهتمامي، ولم أعد أرى أيةَ عجائب من حولي، وصرتُ أتكلّم قليلاً مع زوجتي، ولم أعد أتمكّن من التفكير في شيء آخر سوى القواعد.

وبعد أسبوع طرحتُ على نفسي السؤال التالي: لماذا أتعلّم هذا كلّه؟

ليست غايتي أن أمارس الجمباز. ولا أعتقد أن الأشخاص الذين كانوا يمارسون «مشيَهم الشمالي» فكّروا في البداية بشيء آخر سوى متعة المشي، وتحسين توازنهم وتحريك أجسامهم. بالحدس كنا نعرف ما هو الارتفاع المثالي للعصي، وبالحدس أيضاً كنا نستطيع أن نستنتج أنها كلما كانت قريبة من الجسم، كلما كانت الحركة أفضل وأسهل. أما الآن، وبسبب هذا القواعد، فقد كففتُ عن التركيز على الأشياء التي أحبّها، وصرتُ أكثر انشغالاً بصرف الحريرات، وبتحريك عضلاتي واستخدام جزء من عمودي الفقري.

حاولتُ أن أنسى كل ما تعلّمتُه. والآن، نحن نمشي مع عصَوَينا، مستفيدين من العالم الذي يحيط بنا، وشاعرين بالفرح في رؤية جسدينا يتحرّكان ويتوازنان. ولو كنتُ أريد أن أمارس الجمباز أكثر من «التأمل مع الحركة» لكنتُ انتسبتُ إلى إحدى المدارس. أما الآن فأنا راضٍ عن «مشيي الشمالي» المسترخي والعفوي، حتى لو أنني لا أفقد 46% من حريراتي أكثر.

لستُ أدري لماذا يملك الكائن البشري هذه الهوس في وضع قواعد لكل شيء.

قطعة الخبز التي سقطت من الناحية الأخرى

نحن نميل دائماً إلى الإيمان بـ «قانون مورفي» الشهير: كل ما نفعله يميل دائماً إلى السير في الاتجاه الخاطئ. ويروي جان ـ كلود كاريير قصة ممتعة في هذا الصدد.

كان رجلُ يتناول فطوره بهدوء، وفجأةً سقطت على الأرض قطعةُ الخبز التي دهنها بالزبدة. وكم كانت دهشته كبيرةً عندما رأى أن الجهة التي دهنها بالزبدة كانت تتجّه إلى الأعلى!

ظن الرجل أنه أمام معجزة. تحمّس وذهب ليروي لأصدقائه ماحدث. فوجئ الجميع لأن قطعة الخبز، عندما تسقط أرضاً، فإن الجهة المدهونة بالزبدة تتجه إلى الأسفل دائماً وتوسّخ كل شيء.

قال له أحدهم: «قد تكون قدّيساً، وها أنتَ تتلقّى إشارةً من الله».

سرعان ما انتشرت القصة في كل أرجاء القرية الصغيرة، وأخذ الجميع يناقشون ذلك الحدث بحماسة: كيف، وبعكس كل ما كان يُقال، سقطت خبزةُ هذا الرجل بهذه الطريقة؟ وبما أن أحداً لم يجد جواباً مناسباً، ذهبوا لمقابلة أحد المعلّمين ليقصّوا عليه القصة، وكان يسكن قريباً من القرية.

طلب المعلّم مهلة ليلة لكي يصلّي ويفكّر ويبحث عن الإلهام الإلهي. وفي اليوم التالي عاد الجميع إليه ينتظرون جوابه قلقين.

قال لهم: «الجواب سهل جداً. في الواقع، لقد سقطت الخبزة على الأرض تماماً كما ينبغي لها أن تسقط، ولكن الزبدة هي التي تمدّدت في الجهة الخاطئة».

كتب ومكتبات

في الواقع، ليس لدي كثيرٌ من الكتب: منذ بضع سنوات، أجريتُ بعض الخيارات في حياتي، تقودني فكرةُ البحث عن الحد الأقصى من النوعية بالحد الأدنى من الأشياء. لا أقصد أني سعيتُ إلى حياةٍ تقشّفية ـ بل على العكس تماماً، عندما لا نكون مضطرّين لامتلاك ما لانهاية من الأشياء، تكون لدينا حرية واسعة. بعض أصدقائي (وصديقاتي) يشكون من إضاعة ساعات من حياتهم على محاولة اختيار ما سيلبسونه لأنهم يملكون ملابس كثيرة. وبما أن خزانتي تُختصر «بأسود أساسي»، فأنا لستُ بحاجة إلى مواجهة مشكلة.

ومع ذلك أنا لن أتحدّث عن الموضة، بل عن الكتب. ومن أجل العودة إلى المهم قرّرتُ ألا أحتفظ إلا بأربعمائة كتاب في مكتبتي، بعضها لأسباب وجدانية، وبعضها الآخر لأني أعيد قراءتها باستمرار. لقد اتّخذتُ هذا القرار لأسباب ودوافع مختلفة، أحدها الحزن الذي يعتري المرء عندما يرى المكتبة التي جُمعت بعناية طوال حياة كاملة تُباع أمام عينيه بالوزن وبدون احترام. وسبب آخر: لماذا أحتفظ بهذه الأجزاء كلها في البيت؟ ألكي أبينّ لأصدقائي أني مثقّف؟ ألكي أزيّن بها الجدران؟ إن الكتب التي اشتريتها ستكون أكثر فائدةً بكثير في مكتبة عامة من أن تبقى في بيتي.

في الماضي كان بوسعي أن أقول: أنا بحاجة إليها لكي أرجع إليها. أما اليوم، عندما تنقصني معلومة أشغّل حاسوبي وأكتب كلمةً

مفتاحية فيظهر أمامي كل ما أحتاج إليه. إنها الإنترنت، أكبر مكتبة على هذا الكوكب.

طبعاً، أنا ما أزال أشتري كتباً - إذ ليس هناك من وسيلة إلكترونية يمكنها أن تحلّ محلها. ولكن ما إن أنتهي من قراءة كتاب، حتى أدعه يسافر، أعطيه لأحد الأشخاص، أو أضعه في مكتبة عامة. ليس مقصدي أن أنقذ غابات أو أن أبدو كريماً: أنا أؤمن بأن للكتاب رحلةً خاصة، ولا يمكن أن يُحكم عليه بالبقاء جامداً على أحد الرفوف.

ولكوني كاتباً، أعيش من حقوق المؤلف، ربما أكون في حالة من الدفاع عن قضية ليست في مصلحتي - ففي النهاية كلما اشتُرِيَتْ كتبي كلما كسبتُ مالاً. ولكن سيكون في الأمر ظلمٌ للقارئ، وعلى الأخص في بلدان يكون جزءٌ كبير من برامجها الحكومية للشراء للمكتبات لا يعتمد على المعيار الأساسي لخيار جدي: متعة المطالعة ونوعية النص.

إذن لنترك كتبنا تسافر، لتلمسها أيادٍ أخرى وتستمتع بها عيونٌ أخرى. في هذه اللحظة، وأنا أكتب هذا النص، تذكّرتُ قصيدة للويس بورخِس عن الكتب التي لن تُفتَح من جديد أبداً.

أين أنا الآن؟ في مدينة صغيرة في البيرينيه، في فرنسا، أجلس في مقهى، مستفيداً من الهواء المكيّف لأن درجة الحرارة في الخارج لا تُطاق. شاءت المصادفة أن أمتلك المجموعة الكاملة لبورخس في بيتي، على بعد عدة كيلومترات من المكان الذي أكتب فيه - إنه كاتب أعيد قراءته باستمرار. ولكن لماذا لا أجري اختباراً؟

اجتزتُ الشارع، مشيتُ خمس دقائق إلى مقهى آخر مزوّد بحواسيب (وهذا النوع من الأمكنة معروفة باسم لطيف ومتناقض: السيبرمقهى). حيّيتُ صاحبه وطلبتُ زجاجة مياه معدنية مثلّجة، فتحتُ صفحة محرّك البحث، ونقرتُ على بعض الكلمات من البيت

الوحيد الذي أتذكّره، مع اسم المؤلف، وخلال أقل من دقيقتين، حصلتُ على القصيدة كاملةً:

هناك بيتٌ لفيرلين لن أتذكّره أبداً.

هناك مرآة رأتني للمرة الأخيرة.

هناك باب موصد حتى نهاية الأزمنة.

بين كتب مكتبتي

هناك كتاب لن أفتحه أبداً.

في الواقع، لدي انطباعٌ بأن هناك كثيراً من الكتب التي أعطيتها ولن أفتحها أبداً - فهناك كتب تُنشر باستمرار، مهمة، وأعشق قراءتها. وأرى أن من الروعة بمكان أن يمتلك الناس مكتبات، بصورة عامة، أول تماس للأطفال مع الكتب يولد من فضولهم لبعض الأجزاء المجلّدة، مع شخصيات ورسائل. ولكني أجد أيضاً أن من الرائع أن ألتقي في أمسيات التوقيع قرّاءً يحملون نسخاً عتيقة جداً استعيرت عشرات المرات: هذا يعني أن هذا الكتاب قد سافر كما تسافر روح مؤلّفه حين كان يكتبه.

براغ، 1981

ذات يوم من أيام شتاء عام 1981 كنتُ أتنزّه في شوارع براغ مع زوجتي فالتقينا بصبي يرسم الأبنية المحيطة به.

رغم أني أتحاشى أن أحمل معي أشياءً عندما أسافر (وكان أمامنا سفرٌ طويل)، أعجبني أحد الرسوم، وقرّرتُ أن أشتريه.

وعندما ناولت الصبيَّ المال تبينّ لي أنه لم يكن يضع قفازات رغم البرد الذي يصل إلى «ـ 5» درجة مئوية.

سألته: «لماذا لا ترتدي قفازات؟

ـ لكي أتمكّن من الإمساك بقلم الرصاص».

وبدأ يحكي لي أنه يعشق براغ في الشتاء، وأن هذا الفصل هو الأفضل لرسم المدينة. وكان فرحاً جداً ببيع رسمه إلى درجة أنه قرّر أن يرسم صورة زوجتي مجاناً.

بينما كنتُ أنتظر أن يفرغ من رسم الصورة، أدركتُ أن شيئاً غريباً قد حدث: لقد تكلّمنا ما يقارب الخمس دقائق، ولم يتكلّم أحد منا نحن الاثنين لغة الآخر. تفاهمنا ببساطة بوساطة الإشارات والضحكات وتعبيرات الوجه، والرغبة في تقاسم شيء ما.

إن مجرّد الرغبة في تقاسم شيءٍ ما جعلنا نلَج إلى عالم اللغة دون كلام، حيث كل شيء ما يزال واضحاً، وحيث لا يوجد أدنى خطر في أن يُساءَ تأويل كلام أحدٍ منا.

من أجل امرأة هي كل النساء

بعد أسبوع من انتهاء معرض فرانكفورت للكتاب في عام 2003، تلقّيتُ اتصالاً هاتفياً من ناشري في النرويج: إن منظّمي الحفل الموسيقي الذي سيقام بمناسبة منح جائزة نوبل للسلام للإيرانية شيرين عبادي، يتمنّون أن أكتب نصاً لهذه المناسبة.

كان ذلك شرفاً لا يجدر بي أن أرفضه، لأن شيرين عبادي أسطورة: امرأة طولها 1,50 متراً ولكنّ طول قامتها كان كافياً لإيصال صوتها إلى أربعة أركان الأرض عندما تدافع عن حقوق الإنسان. وفي الوقت نفسه، إنها مسؤولية أخشاها قليلاً - إذ سوف يُنقل الحدث على مئة وعشرة بلدان ولن يكون لدي إلا دقيقتان للحديث عن امرأةٍ كرّست حياتها كلّها للإنسان. مشيت في الغابات قرب الطاحونة التي أسكن فيها عندما أكون في أوروبا، وفكّرتُ مراراً أن أتصل لكي أقول إني لم أستطع تحضير شيء. ولكن أهم ما في الحياة هو التحديات التي نواجهها، وأخيراً قبلتُ الدعوة.

سافرتُ إلى أوسلو في 9 كانون الثاني. وفي اليوم التالي - وكان نهاراً مشمساً رائعاً - كنتُ في الصالة التي سيتم فيها تسليم الجائزة. كانت نوافذ الفندق الواسعة تسمح لي بأن أرى المرفأ حيث كنتُ جالساً مع زوجتي قبل إحدى وعشرين سنةً، وفي الفترة نفسها من السنة تقريباً، نأكل القريدس الذي تأتي به قوارب الصيد. فكّرت بالرحلة الطويلة بين هذا المرفأ وهذه الصالة، ولكن ذكرياتي انقطعت بسبب أصوات الأبواق التي أعلنت عن دخول الملكة والأسرة

المالكة. سلّمت اللجنة المنظمة الجائزة، وألقت شيرين خطاباً حماسياً ندّدت فيه باللجوء إلى الإرهاب بوصفة مسوّغاً لإقامة دولة بوليسية في العالم.

وفي المساء، في الحفل الموسيقي التكريمي لصاحبة الجائزة، قدّمت كاترين زيتا جونز لكلمتي. في هذه اللحظة ضغطتُ على زر من أزرار هاتفي المحمول، ورن الهاتف في طاحونتي القديمة (كان كل شيء محضّراً مسبقاً)، وصارت زوجتي معي تسمع صوتَ مايكل دوغلاس وهو يقرأ خطابي.

هذا هو النص الذي كتبته ـ وأعتقد أنه ينطبق على كل من يناضلون من أجل عالم أفضل:

قال الشاعر جلال الدين الرومي: «الحياة هي كما لو أن ملكاً أرسل شخصاً إلى بلادٍ لكي ينجز مهمة محدّدة. يذهب الشخص وينجز مئات الأشياء ـ ولكن إذا لم ينجز ما طُلب منه، فكأنه لم يفعل شيئاً أبداً».

من أجل المرأة التي فهمت مهمتها.

من أجل المرأة،

التي نظرت إلى الطريق أمام عينيها وفهمت أن سباقها الطويل سيكون عسيراً.

من أجل المرأة،

التي لم تسعَ إلى التقليل من شأن هذه المصاعب: بل على العكس، لقد أظهرتها وجعلتها باديةً للعيان،

من أجل المرأة

التي جعلت الوحيدين أقلَّ وحدةً، والتي أطعمت الجياع وروت الظمآنين للعدالة، وعملت من أجل أن يكون الظالم في حال أسوأ من حال المظلوم.

من أجل المرأة،

التي أبقت أبوابَها مشرعةً دائماً، وأبقت يديها تعملان وقدميها تتحرّكان.

من أجل المرأة التي شخّصت كلامَ الشاعر الفارسي الآخر حافظ، عندما قال: «حتى سبعة آلاف سنة من الفرح لا يمكنها أن تبرّر سبعة أيام من الظلم».

من أجل المرأة التي هي هنا هذا المساء،

فلتكن كلاً منا،

فليتضاعف مثالها،

فليكن أمامها المزيد من الأيام الصعبة لكي تتمكّن من إنجاز مهمتها. وهكذا لن تجد الأجيال القادمة معنًى للظلم إلا في التعريفات القاموسية، وليس في حياة البشر.

فليكن سباقها بطيئاً،

لأن إيقاعها هو إيقاع التغيير.

والتغيير، التغيير الحقيقي، ما يزال يستغرق وقتاً طويلاً لكي يتحقّق.

أحدهم وصل من المغرب

وصل أحدهم من المغرب وروى لي قصة غريبة عن الطريقة التي تنظر بها بعض قبائل الصحراء إلى الخطيئة الأولى:

كانت حواء تتنزّه في جنّات عدن، عندما تقدّمت الحية، وقالت لها:

«كلي هذه التفاحة!».

رفضت حواء التي كانت تفهم كلام الله تماماً. فألحّت الحية قائلةً:

«كلي هذه التفاحة، إذ يجب أن تتجمّلي أكثر لزوجك».

أجابت حواء:

- لا موجب لذلك، فليس هناك من امرأة سواي.

ضحكت الحية وقالت:

- بلى، يوجد.

وبما أن حواء لم تصدّقها، أخذتها إلى قمة جبل حيث يوجد بئر وقالت لها:

«إنها في هذه البئر، وقد خبّأها آدم».

انحنت حواء ورأت في ماء البئر خيالَ امرأةٍ جميلة منعكساً، فسارعت إلى أكل التفاحة التي قدّمتها لها الحية.

وترى القبيلة المغربية نفسها أن من يرى صورته منعكسةً في مياه البئر ولا يخاف منها يعود إلى الجنة.

جنازتي

جاء صحافي «*ميل أون صنداي*» إلى الفندق في لندن، وسألني سؤالاً بسيطاً: إن متُّ اليوم، فكيف ستتم جنازتي؟

في الواقع، إن فكرة الموت ترافقني كل يوم منذ أن سرتُ طريق سان ـ جاك في عام 1986 وحتى اليوم. فكرة أنّ كل شيء يمكن أن ينتهي ذات يوم ترعبني ـ ولكن خلال مرحلةٍ من هذا الحج، قمت بتمرين يقوم على التمرّن على شعور أن أدفَن حياً. كان التمرين قاسياً إلى درجة أني فقدتُ الخوف كلياً، وأخذتُ أواجه الموت بوصفه رفيقَ سفرٍ جالساً دائماً إلى جانبي، وهو يقول: «سأضربك، ولن تعرف متى، فلا تتوانَ عن العيش بأقصى ما تستطيع».

وهكذا لا أؤجّل أبداً إلى الغد ما يمكنني أن أعيشه اليوم ـ وهذا يحوي الأفراح والواجبات نحو عملي وطلبات الصفح عندما أشعر أني جرحتُ شخصاً ما، وتأمّل اللحظة الحالية كما لو أنها الأخيرة. أذكر أني شممتُ رائحة الموت عدة مرات. في يومٍ بعيد من عام 1974، على هضبة فلامنغو (ريو دو جانيرو) حيث أنّ سيارة الأجرة التي كنتُ فيها صُدمت بسيارة أخرى، وشهَر نفرٌ من أشباه العساكر أسلحتهم ووضعوا لي غطاءً على رأسي، وحتى لو أنهم أكدوا لي أن مكروهاً لن يحصل لي، أيقنتُ أني سأكون مفقوداً جديداً من مفقودي النظام العسكري.

ثم في آب من عام 1989، عندما ضعتُ أثناء تسلّق جبال البيرينيه. نظرتُ إلى الحواف الشاهقة الخالية من الثلوج والنباتات،

وظننتُ أني لن أملك القوى للعودة، واستنتجتُ أنهم سيجدون جثّتي في الربيع القادم. أخيراً، وبعد ساعات من التيه، عثرتُ على طريق ضيق أوصلني إلى قرية تائهة.

ألحّ صحافي *ميل أون صنداي*: ولكن كيف ستتم جنازتي؟ حسنٌ، بحسب الوصية التي كتبتُها، لن يكون هناك جنازة: فقد قرّرتُ أن أُحرق، وستنثر زوجتي رمادي في مكان يسمّى سيربريرو، في إسبانيا ـ حيث وجدتُ سيفي. ومخطوطاتي غير المنشورة لن تُنشَر (أصابني الهلع من عدد الأعمال «بعد الوفاة» أو من «حقائب النصوص» التي قرّر ورثةُ الفنّانين أن ينشروها، بلا وازع من ضمير، لكي يكسبوا قليلاً من المال؛ فإذا لم يفعل المؤلّفون ذلك أثناء حياتهم، فلماذا لا تُحترَم هذه الحميمية؟). والسيف الذي وجدتُه على طريق سان ـ جاك سيُلقى به في البحر وسيعود إلى حيث أتى. وأموالي، وكذلك، حقوق المؤلف التي ستستمرّ خلال السنوات الخمسين القادمة سوف تخصَّص بأكملها للمؤسّسة التي أوجدتُها.

وتابع الصحافي: «وشاهدة قبرك؟». بالتأكيد، إذا ما أحرقتُ فلن يكون هناك حجر مع كتابة، لأن رمادي ستذروه الرياح. ولكن إذا ما أردتُ أن أختار عبارةً، فسأطلب أن يُكتب: «مات بينما كان حياً». قد تبدو هذه العبارة متناقضة، ولكني أعرف كثيراً من الناس وقد كفّوا عن الحياة، حتى وإن واصلوا عملَهم، وأكلَهم ونشاطاتهم الاجتماعية العادية. إنهم يتصرّفون كالآلات، دون أن يفهموا اللحظةَ السحرية التي يحملها كلُّ يومٍ في ذاته، ودون أن يتوقّفوا ليفكّروا بمعجزة الحياة، ودون أن يفهموا أن الدقيقة التالية قد تكون دقيقتهم الأخيرة على وجه هذه الأرض.

استأذن الصحافي، فجلستُ أمام حاسوبي، وقرّرتُ أن أكتب هذا النص. أعرف أن لا أحد يحب التفكير في هذا الموضوع، ولكن لدي واجب تجاه قرّائي: هو أن أجعلهم يفكّرون في الأمور الهامة في الوجود. وربما كان الموت هو الأهم. نحن نمشي باتجاهه، ولا

نعرف أبداً متى سيضربنا، لذا يجب علينا أن ننظر من حولنا، وأن نشكره على كل دقيقة، بل وأن نشكره أيضاً لأنه جعلنا نفكّر بأهمية كل موقف نتّخذه أو لا نتّخذه.

ومنذ ذلك الحين علينا أن نستسلم لكل ما يجعل منا «أمواتاً أحياء» وأن نراهن بكل شيء، ونخاطر بكل شيء، من أجل الأشياء التي لطالما حلمنا بتحقيقها.

شئنا أم أبينا، ملاك الموت ينتظرنا.

ترميم الشبكة

ذهبتُ لاحتساء الشاي بعد الظهر في نيويورك مع فنانة غير عادية. إنها تعمل في مصرف في وول ستريت، ولكنها حلمت ذات يوم: يجب أن تذهب إلى اثني عشر مكاناً في العالم. وفي كل مكان من هذه الأمكنة، عليها أن تقوم بعملٍ تصويري أو نحتي في الطبيعة.

لقد نجحت حتى الآن في تحقيق أربعة أعمال. أرتني صورَ أحدها: هندي منحوت في كهف في كاليفورنيا. وبينما هي تواصل انتظار الإشارات في أحلامها، تواصل عملها في المصرف ـ وهكذا هي تجمع المال لكي تسافر وتستأنف مهمتّها.

سألتُها لماذا تفعل ذلك فأجابت:

«لكي أبقي العالم متوازناً. قد يبدو ذلك حماقةً، ولكن ثمة شيءٌ عنيد يوحّدنا جميعاً، ويمكننا أن نحسّنه أو ندمّره في تصرّفاتنا. يمكننا أن ننقذ أو ندمّر أشياء كثيرة بحركة بسيطة تبدو أحياناً في غاية التفاهة.

«وقد تكون أحلامي حماقات، ولكن لن أخاطر بعدم متابعتها: ففي رأيي، إن العلاقات بين البشر تشبه شبكة عنكبوت هائلة وواهية. بعملي، أحاول أن أرمّم جزءاً من هذه الشبكة».

في النهاية هم أصدقائي

كانت إحدى المؤمنات تقول في الشارع: «هذا الملك قوي لأنه تعاقد مع الشيطان». فارتبك الصبي.

وبعد بعض الوقت، بينما كان ذاهباً إلى مدينةٍ أخرى سمع رجلاً إلى جانبه يقول: «كل الأراضي تعود إلى مالك واحد. هذا شيطاني!».

وذات ظهيرة مرت امرأةٌ جميلة بجانب الصبي، فصرخ كاهنٌ مُغضَباً: «هذه الفتاة في خدمة الشيطان!».

فقرّر الصبي لقاء الشيطان، فبادره منذ أن رآه: «يزعمون أنكَ تجعل الناس أقوياء، وأغنياء وجميلين!».

فأجاب الشيطان: «ليس هكذا بالضبط. فأنتَ لم تسمع إلا رأي أولئك الذين يريدون أن يصنعوا لي دعاية».

كيف بقينا؟

تلقّيت بالبريد ثلاثة ليترات من المركّبات التي تحلّ محل الحليب؛ فهناك شركة نرويجية تريد أن تعرف إن كان يهمّني الاستثمار في إنتاج هذا النوع الجديد من الغذاء، علماً أن الأخصائي دافيد ريتز يرى أن «كل حليب بقرٍ يحوي تسعةً وخمسين هورموناً منشّطاً، وكثيراً من الشحوم، والكولستيرول والديوكسينات وباكتريات وفيروسات».

تذكّرتُ الكالسيوم الذي قالت لي أمي عنه عندما كنتُ صغيراً إنه مفيد للعظام، ولكن الاختصاصي كان أسرع مني إذ بادرني قائلاً: «الكالسيوم؟ كيف تتمكّن الأبقار من اكتساب ما يكفي من الكالسيوم لعظامها الضخمة؟ عن طريق النباتات!» من المؤكّد أن المركّب الجديد مصنوع من النباتات، والحليب أُدين في دراسات عديدة أجريت في المعاهد الأكثر انتشاراً في العالم.

البروتينات؟ كان دافيد ريتز حازماً عندما قال: «أعرف أن الحليب يُدعى اللحم السائل [أنا لم أسمع هذا التعبير قطّ، ولكن لا بدّ أنه شخص يعرف ما يقول] بسبب الكمية الكبيرة من البروتينات التي يحويها. ولكن البروتينات هي التي تجعل الكالسيوم لا يُمتص من الخلية. والبلدان التي لديها نظام غني بالبروتينات لديها علامات واضحة على ترقّق العظام (نقص الكالسيوم في العظام).

وفي المساء نفسه تلقّيتُ من زوجتي نصاً وجدتُه على الإنترنت يقول:

«الأشخاص الذين أعمارهم اليوم بين الأربعين والستين سنة، كانوا يركبون سيارات ليس فيها أحزمة أمان، ولا مسند للرأس ولا بالونات. والأطفال كانوا أحراراً على المقاعد الخلفية، يشاغبون ويقفزون».

«وكانت الأسرّة مطليةً بالألوان «المشكوك فيها» لأنها قد تحوي الرصاص أو عنصراً ضاراً آخر».

أنا على سبيل المثال، أنتمي إلى جيل كان يمارس الـ كارينيوس دو روليمان (لا أعرف كيف أشرح ذلك للجيل الحالي - لنقل إنها كرات معدنية مربوطة بين دائرتين من الحديد) وكنا ننزل منحدرات بوتافوغو، ونحن نكبح بأحذيتنا، ونسقط ونُجرح ولكننا كنا فخورين جداً بهذه السرعة.

ويتابع النص:

«لم يكن هناك من هاتف جوّال، ولم يكن لأهالينا أية وسيلة لمعرفة مكاننا: كيف كان ذلك ممكناً؟ الأولاد لم يكن معهم عقل أبداً، وكانوا يُعاقَبون باستمرار، ولم يكن لديهم مشكلات نفسية من الرفض أو نقص الحب. وفي المدرسة، وكان هناك الطلاب الجيدون والسيئون: كان الأوائل ينجحون إلى المراحل التالية، أما الآخرون فيرسبون. ولم يكونوا يذهبون إلى المعالج النفسي ليدرس حالاتهم، بل كان يُطلب منهم أن يعيدوا سنتهم فقط».

ومع ذلك فقد بقينا على قيد الحياة برُكَبٍ مسلّخة وبعض الرضوض. لم نبقَ على قيد الحياة فحسب، بل إننا نتذكّر بحنين الزمن الذي لم يكن فيه الحليب سمّاً، والذي كان يجب على الطفل فيه أن يحلّ مشكلاته بلا مساعدة، ويناضل إذا لزم الأمر، ويُمضي جزءاً كبيراً من نهاره دون ألعاب إلكترونية، وهو يخترع ألعاباً مع أصدقائه.

ولكن لنعد إلى موضوعنا الأساس: قرّرتُ أن أجرّب المركّب الإعجازي الجديد الذي سيحلّ محلّ الحليب القاتل.

لم أستطع أن أتجاوز الجرعة الأولى.

طلبتُ من زوجتي ومن خادمتي أن تجرّباه دون أن أشرح لهما عنه؛ قالتا لي كلتاهما إنهما لم تذوقا أسوأ من هذا في حياتهما.

بالي مشغول على أطفال الغد، مع ألعابهم الإلكترونية، وعلى أهاليهم وعلى هواتفهم الجوّالة، وعلى المعالجين النفسيين الذين سيساعدونهم عند كل هزيمة يُمنَون بها، وبالي مشغول على وجه الخصوص، على اضطرارهم إلى شرب ذلك «الشراب السحري» الذي سيحميهم من الكوليسترول وترقّق العظام والتسعة وخمسين هرموناً نشيطاً ومن التوكسينات.

سيعيشون في صحة ممتازة ومتوازنة جداً، وعندما سيكبرون سيكتشفون الحليب (الذي قد يُصبح حينئذٍ شراباً خارجاً عن القانون). وربما في عام 2050 سيتكفّل أحد العلماء بشراء مركّب مستهلَك منذ بداية الأزمنة.

أو ربما اكتفى بالحصول على الحليب عن طريق مهرّبي المخدّرات.

موعد مع الموت

ربما كان عليّ أن أموت في الساعة 22.30 من يوم 22 آب 2004، قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من عيد ميلادي. ولكي يكون مونتاج سيناريو شبه ـ موتي ممكناً، دخلت عدة عوامل في الحدث:

أ ـ كان الممثل ويل سميث يتحدّث دائماً عن روايتي *الخيميائي* في مقابلاته من أجل الترويج لفيلمه.

ب ـ الفيلم يستند إلى كتاب كنتُ قد قرأته منذ سنوات وأحببتُه كثيراً: *أنا، إنسان آلي* لإسحق أسيموف. قرّرتُ أن أشاهد الفيلم تكريماً لسميث ولأسيموف.

ت ـ كان الفيلم يُعرَض في مدينةٍ صغيرة في الجنوب الغربي من فرنسا منذ الأسبوع الأول من شهر آب، ولكن سلسلةً من الأمور منعتني من الذهاب إلى السينما حتى الأحد الماضي.

تعشّيتُ باكراً، وشربتُ نصف زجاجة نبيذ مع زوجتي، ودعوت الخادمة إلى الذهاب معنا (تمنّعت، ثم قبلت أخيراً)، وصلنا في الوقت المناسب واشترينا البوشار ورأينا الفيلم وأحببناه.

ركبتُ السيارة. لدينا عشر دقائق حتى نصل إلى طاحونتي القديمة التي تحوّلت إلى بيت. وضعتُ قرصاً مدمجاً يحوي موسيقا برازيلية، وقرّرتُ أن أسير ببطءٍ لكي نتمكّن من سماع ما لا يقل عن ثلاث أغانٍ خلال هذه الدقائق العشر.

على الطريق المزدوج، الذي يجتاز قرىً نائمة، رأيتُ في مرآتي

العاكسة فانوسين نبتا من العدم. وأمامنا كان منعطف مؤشَّر بشكل مناسب بأعمدة.

حاولتُ أن أضغط على المكابح، لمعرفتي أن هذه السيارة لن تصل إلى مبتغاها، ولأن الأعمدة كانت تمنع تماماً كل إمكانية للتجاوز. دام هذا كلّه جزءاً من الثانية ـ وأذكر أني فكّرتُ: «هذا الشخص مجنون!» ـ، ولكن لم يكن لدي الوقت لإعطاء تعليقات. سائق السيارة (الصورة التي بقيت محفورة في ذاكرتي هي مرسيدس، ولكني لستُ متأكّداً من ذلك) رأى الأعمدة، سرّع سيره، وصنع لي ذيل سمكة، وبينما كان يحاول أن يصحّح اتجاهه، وجد نفسه معترضاً الطريق.

منذ تلك اللحظة بدا كل شيء وكأنه يحدث على البطيء: تدحرج مرةً، مرتين، ثلاث مرات على جانبه. ثم هوَتْ السيارة إلى جانب الطريق واستأنفت دحرجاتها ـ وهذه المرة كانت تقفز قفزات كبيرة، والمصدمان الأمامي والخلفي يضربان الأرض.

كانت مصابيحي تضيء المشهد بأكمله، ولم أكن أستطيع أن أكبح السيارة فجأةً ـ فأنا أرافق السيارة التي تتدحرج إلى جانبي. الحادث يشبه مشهد الفيلم الذي رأيته للتو، إلا أن، يا إلهي، ذاك المشهد كان خيالاً، والآن، إنها الحياة الواقعية.

عادت السيارة إلى الطريق وتوقّفت أخيراً، مقلوبةً على جانبها الأيسر. تمكّنتُ من رؤية قميص السائق. أوقفت سيارتي بجانبه، وعبرت رأسي فكرةٌ وحيدة: يجب أن أخرج لأساعده. في تلك اللحظة أحسستُ بأصابع زوجتي تنغرس في ذراعي: استحلفتني بالله أن أتابع سيري، وأوقف السيارة بعيداً، فقد تنفجر السيارات المتعرّضة لحادث، أو قد تشتعل.

سرتُ مئة متر ثم وقفت. كان قرص الموسيقا البرازيلية يواصل غناءه، وكأن شيئاً لم يكن. بدا كل شيء سريالياً، وبعيداً جداً.

سارعت زوجتي وإيزابيل، الخادمة، إلى مكان الحادث. وقفت سيارةٌ أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس، وقفزت منها امرأة عصبية، فقد أضاءت مصابيحها أيضاً هذا المشهد الدانتي. سألتني إن كنتُ أحمل هاتفاً جوّالاً، قلتُ نعم، «إذن اطلب النجدة!».

ما رقم النجدة؟ نظرت إليّ وقالت: «الجميع يعرفه: 112!» كان الهاتف مغلقاً ـ فقبل الفيلم يذكّروننا باستمرار بوجوب إغلاقه. أدخلتُ رمز الدخول، واتصلتُ بالـ 112. كنتُ أعرف بالضبط أين وقع الحادث: بين قريتي لالوبير وأورغ.

عادت زوجتي والخادمة: الصبي كان مصاباً بخدوش، ولكن بلا خطورة على ما يبدو. فما رأيتُه بعد ست دحرجات، وبلا خطورة! خرج من السيارة نصف مغمى عليه. توقّفت سيارات أخرى، ووصل رجال الإطفاء خلال خمس دقائق، وسار كل شيء على ما يرام.

كل شيء على ما يرام. على فرق جزء من الثانية، كان سيصيبني ويرميني في الحفرة، وكان كل شيء سيسير بصورة سيئة، سيئة جداً، بالنسبة إليّ وإليه.

لدى عودتي إلى البيت، نظرتُ إلى النجوم. أحياناً بعض الأشياء توجد على طريقنا، ولكن بما أن ساعتنا لم تجِنْ بعد، فإن هذه الأشياء تدنو منا أثناء مرورها، دون أن تصيبنا ـ رغم أنها تكون واضحة جداً لكي نتمكّن من رؤيتها. حمدتُ الله لأنه وهبني الوعي لأفهم أن ما كان يجب أن يحدث قد حدث، ولم يحدث شيءٌ، كما كان يقول أحد أصدقائي.

لحظة الفجر

أثناء منتدى دافوس الاقتصادي، روى شيمون بيريس، الحائز على جائزة نوبل للسلام، القصةَ التالية:

جمع أحد الحاخامات تلاميذه وسأل:

«كيف نعرف بدقة اللحظة التي ينتهي فيها الليل ويبدأ النهار؟

أجاب أحد الأولاد:

ـ عندما نستطيع أن نميّز من بعيد بين النعجة والكلب.

وقال صبي آخر:

ـ في الواقع، نستطيع أن نعرف أن النهار قد طلع، إذا ما استطعنا أن نميّز من بعيد بين الزيتونة والتينة.

ـ هذا ليس تعريفاً جيداً.

سأل الأطفال:

ـ إذن ما هو الجواب؟».

فأجاب الحاخام: «عندما يقترب شخصٌ غريب، ونخلط بينه وبين أخينا، وتختفي الصراعات ـ يكون الليل قد انجلى، والنهار قد طلع».

أحد أيام شهر كانون الثاني 2005

المطر يهطل بغزارة اليوم، ودرجة الحرارة تدنو من 3. قرّرتُ أن أمشي - أنا أعتقد أني إذا لم أمشِ يومياً، لا أستطيع أن أعمل بصورة جيدة - ولكن الرياح قوية جداً أيضاً، فعدت إلى السيارة بعد عشر دقائق. أخذت الصحيفة من صندوق البريد، لا شيء مهماً - ما عدا الأشياء التي قرّر الصحافيون أن علينا أن نعرفها، ونتابعها، وأن نتّخذ موقفاً منها.

ذهبت لأقرأ الرسائل الإلكترونية. لا شيء مهماً، من جديد، فقط هناك بعض القرارات يجب اتّخاذها، ولكن حُلّ كل شيء بسرعة.

حاولتُ اللعب بالقوس، ولكن الرياح واصلت هبوبَها، مستحيل. كنتُ قد كتبتُ كتابي الذي يصدر كل سنتين: *الظاهر*، وها قد بقي لي بضع أسابيع قبل نشره. كتبتُ الأعمدة التي أنشرها على الإنترنت، ووضعتُ نشرتي على صفحتي على الشبكة. أجريتُ فحصاً عاماً للمعدة، ولحسن الحظ لم يُلحَظ لدي أي شيء غير طبيعي (كانوا قد أخافوني من قصة ذلك الأنبوب الذي يُدخلونه من الفم، ولكنه لم يكن رهيباً). ذهبتُ إلى طبيب الأسنان. وتذاكر الطائرة للرحلة المقبلة والتي كانت قد تأخّرت وصلتني بالبريد الخاص. ثمة أشياء يجب أن أقوم بها غداً، وأشياء انتهيتُ منها أمس، أما اليوم...

اليوم، ليس لديّ أي شيء أستطيع أن أركّز عليه اهتمامي.

أنا خائف: ألا يجدر بي أن أفعل شيئاً؟ حسنٌ، إذا أردتُ أن

أخترع لنفسي عملاً، فليس ذلك بالأمر الصعب ـ فلدى المرء دائماً مشاريع عليه أن يطوّرها، ومصابيح يجب أن يبدّلها، وأوراق يابسة عليه أن يكنسها، وعليه ترتيب الكتب، وتنظيم أرشيف الحاسوب، إلخ. ولكن لماذا لا أفكّر بالفراغ الكلي؟

اعتمرتُ قبعة، وارتديتُ ثياباً سميكة، ومعطفاً واقياً من المطر ـ هكذا سوف أتمكّن من مقاومة البرد خلال الساعات الأربع أو الخمس القادمة ـ وخرجتُ إلى الحديقة. جلستُ على العشب المبلّل، وبدأتُ أرتّب في ذهني قائمةً ما يمر في رأسي:

أ ـ أنا غير نافع، والجميع منشغلون في هذه اللحظة، ويعملون بدأب.

الجواب: أنا أيضاً أعمل بدأب، أحياناً أشتغل اثنتي عشرة ساعة في اليوم. واليوم، بالمصادفة، ليس لدي ما أفعله.

ب ـ ليس لدي أصدقاء. أنا، أحد أشهر الكتّاب في العالم، وحيدٌ هنا وهاتفي لا يرن.

الجواب: بالتأكيد، لدي أصدقاء. ولكنهم يعرفون كيف يحترمون عزلتي عندما أكون في طاحونتي القديمة، في سان ـ مارتان، في فرنسا.

ت ـ عليّ أن أخرج لأشتري صمغاً.

نعم، لقد تذكّرتُ للتو أن الصمغ نَفَدَ أمس، فلماذا لا أركب سيارتي وأذهب إلى أقرب مدينة؟ توقّفتُ عند هذه الفكرة. لماذا من الصعب عليّ أن أبقى كما أنا الآن، لا أفعل شيئاً؟

سلسلة من الأفكار مرّت برأسي. أصدقاء قلقون على أشياء لم تحدث بعد، ومعارف يعرفون كيف يملؤون كل دقيقة من حياتهم بمهام تبدو لي سخيفة، وأحاديث ليس لها معنى، واتصالات هاتفية طويلة لا تقول شيئاً مهماً. رؤساء يخترعون أعمالاً لتبرير وظائفهم، وموظفون خائفون لأنهم لم يُعطَوا شيئاً مهماً يقومون به اليوم، وقد

يعني هذا أنهم ليسوا نافعين، وأمهات يتعذّبن لأن أطفالهن خرجوا، وطلاب يتعذّبون بسبب دراساتهم، واختباراتهم وامتحاناتهم.

أقمتُ معركةً طويلةً وصعبةً ضد نفسي لئلا أنهض وأذهب إلى المكتبة وأشتري الصمغ الذي نفد. القلق شاسع، ولكني قرّرتُ أن أبقى هنا، دون أن أقوم بأي عمل، لبضع ساعات على الأقل. شيئاً فشيئاً ترك القلق مكانَه للتأمّل، وبدأتُ أسمع روحي. كانت تذوب رغبةً في التحدّث معي، ولكني كنتُ منشغلاً طوال الوقت.

واصَلَت الريح هبوبَها الأهوج. أعرف أن الطقس بارد، وأن المطر يهطل، وربما كان عليّ أن أشتري الصمغ غداً. لا أفعل شيئاً، وأفعل الشيء الأكثر أهميةً في حياة إنسان: أستمع إلى ما يجب عليّ أن أسمعه من نفسي.

رجلٌ ممدّد على الأرض

في الأول من تموز 1997، عند الساعة الثالثة عشرة وخمس دقائق، صادفتُ رجلاً في الخمسين من عمره ممدَّداً على رصيف كوباكابانا الواسع. مررتُ بجانبه، وألقيتُ عليه نظرةً سريعة وتابعتُ طريقي نحو مقهى أشرب فيه دائماً ماء جوز الهند.

ككل الناس، صادفتُ مئات المرات (بل آلاف المرات؟) رجالاً ونساءً وأطفالاً ممدَّدين على الأرض. وخلال أسفاري المتكرّرة، رأيتُ المشهد نفسَه عملياً في جميع البلدان التي زرتُها ـ من سويسرا الغنية إلى رومانيا البائسة. ورأيتُ أناساً ممدَّدين على الأرض في فصول السنة كافة: في الشتاء القارس في مدريد ونيويورك وباريس، حيث يبقون قرب الهواء الحار الخارج من فتحات المترو؛ وتحت الشمس الحارقة في لبنان، بين الأبنية المهدّمة خلال سنوات الحرب، كما رأيتُ أناساً ممدّدين على الأرض، سكارى، وبلا مأوى، وتَعِبين، فلم يكن ذلك جديداً عليّ.

شربتُ كأس ماء جوز الهند، وكان عليّ أن أعود بسرعة، فلديّ موعد مع خوان أرياس، من صحيفة *الباييس* الإسبانية. وعلى طريق عودتي رأيتُ الرجل ما يزال ممدَّداً تحت أشعة الشمس، وكل من كان يمرّ كان يفعل كما فعلتُ تماماً: كان ينظر ثم يواصل طريقه.

في الواقع إن روحي قد تعبت، دون أن أدري، من رؤية هذا المشهد كل هذه المرّات. ولكن عندما مررتُ من جديد قرب هذا الرجل دفعني شيءٌ أقوى مني لأن أجثو كي أحاول إنهاضه.

لم يُبدِ أية ردّة فعل. حنيتُ رأسه فلاحظتُ وجود دماء قرب صدغه. هل هذا جرح خطر؟ نظّفتُ جلده بقميصي: على ما يبدو لم يكن ذلك خطراً.

في تلك اللحظة بدأ الرجل يتمتم بكلماتٍ من قبيل: «اطلبوا منهم ألا يضربوني».إذن هو حي، وعليّ الآن أن أبعده عن أشعة الشمس، وأن أطلب الشرطة.

أوقفتُ أولَ مارٍّ وطلبتُ منه أن يساعدني على سحب الرجل إلى الظل، بين الرصيف والرمل. كان يرتدي بدلةً ويحمل وثائق وعلباً. ترك كل شيء من يديه وسارع إلى مساعدتي. فهو أيضاً لا بدّ أن روحه تعبت من رؤية مشهد كهذا.

عندما صار الرجل في الظل، ذهبتُ إلى بيتي. كنتُ أعرف أن هناك مركزاً للشرطة العسكرية، وأستطيع أن أطلب منه النجدة. ولكن قبل أن أصل المركز صادفتُ شرطيّين فقلتُ لهما:

«هناك رجل جريح، أمام الرقم كذا، ووضعتُه على الرمل، ومن المستحسن طلب الإسعاف».

قال لي الشرطيان إنهما سيتخذان الإجراءات اللازمة. عظيم! لقد أدّيتُ واجبي. الكشّاف الجيد يُبلّغ دائماً عما يراه. عمل النهار الجيّد. وصارت المشكلة الآن بين أيديهما، وعليهما أن يتصرّفا. والصحافي الإسباني سيصل إلى بيتي بعد دقائق.

ما كدتُ أسير عشر خطوات حتى خاطبني رجل غريب بلغةٍ برتغالية مرتبكة:

«كنتُ قد أبلغتُ الشرطة عن الرجل الذي على الرمل فقالوا: مادام ليس لصاً فالأمر لا يعنيهم».

لم أدع الرجل يكمل كلامه وعدتُ إلى الشرطيين، لأني كنتُ مقتنعاً بأنهما يعرفان من أكون، وأني أكتب في الصحف، وأظهر

على التلفزيون. كان لدي الانطباع الخاطئ بأن الشهرة تسمح بحل كثير من المشكلات في بعض الأحيان.

سألني أحدهما وقد رآني أطالب بالمساعدة بإلحاح: «هل أنتَ رجل ذو نفوذ؟».

إذن يكونا يعرفان من أنا على الإطلاق. فأجبتُ:

«لا. ولكننا سنحل هذه المشكلة مباشرة».

كانت ثيابي مزرية مع قميصي الملطّخ بالدم، وبنطالي القصير المقصوص من بنطال جينز قديم، والعرق يتصبّب مني. كنتُ رجلاً عادياً، مغموراً، لا سلطة لي إلا قلقي من رؤية الناس ممدَّدين على الأرض منذ عشرات السنين، دون أن أفعل أي شيء.

وهذا المشهد غيّر كل شيء. هناك أوقات معينة تجد نفسك خارج الممنوع أو الخوف، وتكون نظرتك مختلفة، ويفهم الناس فيها أنك تتكلّم بجدية. رافقني الرجلان، وطلبا الإسعاف.

حين عدتُ إلى البيت، استخلصتُ من هذه النزهة ثلاثة أمور:

أ ـ نستطيع جميعاً أن نضع حداً لعملٍ ما عندما تحرّكنا العاطفة.

ب ـ هناك دائماً شخص يقول لك: «مادمتَ قد بدأتَ فامضِ حتى النهاية».

ت ـ نحن جميعاً أشخاص متنفّذون عندما نكون مقتنعين قناعةً راسخة بما نفعله.

المربع الناقص

أثناء أحد أسفاري، تلقّيتُ فاكساً من سكرتيرتي تقول فيه: «هناك مربع زجاجي ناقص لتجديد المطبخ. وها أنا أرسل لك المشروع الأصلي، والحلُّ الذي يراه البنّاء لتعويض هذا النقص».

من ناحية، هناك الرسم الذي كانت زوجتي قد وضعته: صفوف منسجمة، مع فتحة للتهوية. ومن ناحية أخرى، المشروع الذي يحل مشكلة غياب المربّع: دوّيخة حقيقية، تدخل فيها المربّعات الزجاجية دون أية مسحة جمالية.

كتبت زوجتي: «فلتشتروا المربّع الناقص». وهكذا تمّ إتمام الرسم الأصلي.

بعد الظهر، فكرتُ طويلاً بهذا الحدث؛ غالباً ما يحصل لنا أن نغيّر المشروع الأصلي لحياتنا، بسبب غياب مربّع بسيط.

راج يروي لي قصة

في قرية بنغالية فقيرة، لم يكن مع إحدى الأرامل المال لتدفع أجرَ الحافلة لابنها، رغم أن الصبي عندما تسجّل في المدرسة الإعدادية، كان عليه أن يجتاز غابةً لوحده. قالت له مهدِّئةً:

«لا تخف من الغابة يا بني. اطلب من ربك كريشنا أن يرافقك، وسيسمع صلاتك».

نفّذ الصبي ما قالته له أمه، فظهر كريشنا وأخذ يوصله إلى المدرسة كل يوم.

وعندما حلّ يوم عيد ميلاد الأستاذ طلب الصبي من أمه بعض المال لكي يجلب هديةً، فقالت له الأم:

«نحن لا نملك المال. اطلب من أخيك كريشنا أن يتدبّر لكَ هدية».

في اليوم التالي باح الصبي بمشكلته لكريشنا، فوهبه جرةً مليئةً بالحليب.

فرح الصبي فرحاً عظيماً، وحمل الجرة إلى أستاذه، لكن الهدايا الأخرى كانت أجمل، ولم يعرها الأستاذ أية أهمية.

وقال لأحد مساعديه: «خذ هذه الجرة إلى المطبخ».

نفّذ المساعد الأمر. ولكن عندما حاول أن يفرغ الجرة تبينّ له أنها كانت تمتلئ من تلقاء نفسها. هُرع إلى الأستاذ وأخبره بالأمر، فاستغرب هذا وسأل الصبي:

«من أين أتيتَ بهذه الجرة؟ وما الحيلة التي تجعلها تمتلئ باستمرار؟

- إن كريشنا، إله الغابة، هو من أعطانيها».

أخذ الأستاذ ومساعده والأطفال يضحكون. وقال الأستاذ:

«ليس هناك منِ إله للغابة. وهذه خُرافة. وإن وُجد فلنخرج لرؤيته».

خرجت العصابة كلها. وبدأ الصبي ينادي كريشنا، لكن هذا لم يظهر. اعترى اليأسُ الصبيَّ، وناداه آخر مرة:

«يا أخي كريشنا، معلمي يريد أن يراك. أرجوكَ أن تظهر له».

في تلك اللحظة، سُمع صوتُ قادمٌ من الغابة، وأخذ يترجّع صداه في كل الأماكن.

«كيف يريد أن يراني، يا بني؟ وهو لا يؤمن حتى بوجودي!».

الطرف الآخر من برج بابل

أمضيتُ الصباح كلَّه وأنا أشرح أني لا أهتمّ بالمتاحف تحديداً، ولا بالكنائس، بل بسكان البلاد، وأن من الأفضل هكذا أن نذهب إلى السوق. ومع ذلك، فقد أصرّوا: في يوم العطلة هذا، السوق مغلقة.

«إلى أين نذهب؟

ـ إلى إحدى الكنائس».

كنتُ أعرف ذلك.

«اليوم، نحن نمجّد قدّيساً خاصاً جداً بالنسبة إلينا، وكذلك بالنسبة إليكم أيضاً. سوف نزور قبر هذا القديس. ولكن لا تطرحوا أسئلة، واقبلوا أن يحصل لنا أحياناً الاحتفاظ بمفاجآت سارّة للكتّاب.

ـ كم من الزمن تدوم هذه الرحلة؟

ـ عشرين دقيقة».

عشرون دقيقة، هذا هو الجواب الجاهز: أعرف بالتأكيد أنها ستدوم زمناً أطول بكثير. ولكن حتى الآن، احترموا طلباتي كلها، فمن الأفضل أن أقبل هذه المرة.

أنا في يريفان، في أرمينيا، صباح هذا الأحد. ركبتُ السيارة طائعاً، رأيتُ جبل أرارات من بعيد وهو مغطّى بالثلوج. تأمّلتُ المنظر من حولي. ليتني أستطيع أن أتسلّقه، بدلاً من أن أسجن في

قبل محاضرة

كنتُ وكاتبة صينية نستعدُّ لبدء الكلام في لقاء لأصحاب المكتبات الأمريكيين. قالت لي الصينية بعصبية بالغة:

«الكلام أمام الجمهور صعب، وسوف نضطرّ إلى تفسير الكتاب بلغة أخرى، تخيّل ذلك!».

رجوتها أن تكفّ، وإلا صرتُ، أنا الآخر عصبياً، لأني كنتُ أعاني من المشكلة نفسها. فجأةً التفتت وابتسمت وقالت لي بصوت خافت:

«سيمرّ كل شيء على ما يرام فلا تقلق. لسنا لوحدنا: انظر إلى اسم مكتبة المرأة الجالسة خلفي».

على بطاقة المرأة كُتب: «مكتبة الملائكة المجتمعين». نجحنا، أنا وهي، في القيام بتقديم جيد لأعمالنا، لأن الملائكة كانوا قد أعطوا الإشارة التي كنا ننتظرها.

عن الأناقة

أُفاجِئ نفسي أحياناً وأنا مقوّس الظهر: وكلما حصل لي ذلك، أكون واثقاً من أن شيئاً ما ليس على ما يرام. في تلك اللحظة، وقبل أن أبحث عما يكدّرني، حاولتُ أن أُغيّر من مظهري ـ أن أجعله أكثر أناقةً. عندما أنتصب من جديد، أُدرك أن هذه الحركة البسيطة أعانتني على استعادة الثقة فيما أقوم به.

غالباً ما يتمّ الخلط بين الأناقة والسطحية، والموضة وغياب العمق. ذلك خطأ بيّن: فالإنسان بحاجة إلى الأناقة في تصرّفاته وفي مظهره، فهذه الكلمة مرادفة للذوق السليم، واللطف، والتوازن الإنساني.

الأناقة وصفاء الذهن واجبتان من أجل مشي الخطوات الهامة في الحياة. بكل تأكيد، لن نذهب إلى حد الهذيان، والقلق بلا حدود من الطريقة التي نحرّك بها أيدينا، وطريقة جلوسنا، وابتسامنا، والنظر من حولنا؛ بل من المستحسن أن نعرف أن جسدنا يتكلّم لغةً، وأن الآخر ـ حتى بطريقة لا شعورية ـ يفهم ما نقوله ما وراء الكلمات.

صفاء الذهن ينبع من القلب. ورغم أنه في أغلب الأحيان يعاني من قلة الثقة، فإنه يعرف أنه، بفضل مظهر حسن، يستطيع أن يستعيد توازنه. إن الأناقة الجسدية التي أعوّل عليها في هذا المقام تأتي من الجسد، وهي ليست أمراً سطحياً، بل إنها الوسيلة التي وجدها الإنسان لكي يحتفي بالطريقة التي يضع بها قدميه على الأرض.

وكذلك عندما تشعر أن مظهركَ يضايقك فلا تعتقد أنه مظهر خادع أو سطحي: إنه صادق لأنه صعب. إنما بوساطته يشعر الطريق مكرَّماً من كرامة الحاج.

كما إني أرجوك ألا تخلط بين مظهرك والغطرسة والزهو. الأناقة هي المظهر الأكثر ملاءمةً لكي تكون حركتك كاملةً، ولكي تكون خطوتك واثقة، ولكي يكون قريبك محترماً.

يتمّ بلوغ الأناقة عندما يتخلّص الإنسان من كل ما هو سطحي ويكتشف البساطة والتركيز: فكلما كان المظهر بسيطاً كلما كان أجمل.

الثلج جميل لأنه لا يملك إلا لوناً واحداً. والبحر جميل لأنه يشبه سطحاً مستوياً، ولكن الثلج والبحر عميقان ويعرفان مزاياهما.

امشِ واثقَ الخطوة، فَرِحَها، ولا تخشَ أن تتعثّر. رفاقك يواكبون حركاتك كلّها، وسوف يساعدونك إذا لزم الأمر. ولكن لا تنسَ أبداً أن خصمكَ يراقبك، وأنه يعرف الفرق بين يدٍ واثقة ويد مرتعشة: وبالتالي إذا كنتَ متوتّراً فتنفّس بعمق، وكن على قناعة أنك ساكن ـ وبإحدى هذه المعجزات التي لا نستطيع أن نفسّرها ـ سرعان ما ستسكنكَ السكينة.

ولحظةَ تتخذ قراراً وتنفّذه، حاول أن تسترجع جميع المراحل التي دعتكَ إلى القيام بهذه الخطوة. ولكن افعل ذلك وأنتَ مسترخٍ لأن من المستحيل أن تمتلك كل القواعد في رأسك: والعقل الحر، كلما استرجعتَ كل مرحلة، سوف تتعرّف إلى اللحظات الأصعب، وإلى الطريقة التي تغلّبتَ فيها عليها. وسينعكس ذلك على جسمك، فانتبه!

يمكننا أن نُجري مقارنةً مع رمي السهام: إن كثيراً من الرماة يشكون من أنهم يشعرون أحياناً بقلبهم ينفطر قلقاً وبيدهم ترتعش، وبأنهم سدّدوا تسديداً سيئاً رغم أنهم أمضوا سنوات طويلة في فن الرماية. إن فن الرماية يجعل أخطاءنا أكثر وضوحاً.

ويومَ لن تشعر بحب الحياة ستكون رمايتكَ مضطربة ومعقّدة. وسترى أنك لا تملك القوة الكافية لشدّ الوتر إلى أقصى ما يمكن، وأنكَ لن تتمكّن من حني القوس كما يجب.

وعندما ترى، في ذلك الصباح، أن رميكَ مضطرب سوف تحاول أن تكتشف ما أدّى إلى هذا الزيغ: وهكذا ستواجه مشكلةً تضايقك، ولكنها كانت خفيّةً حتى ذلك الحين.

لقد اكتشفتَ هذه المشكلة لأن جسمكَ كان متعباً، وأقل أناقةً. غيِّر مظهرك، ولا تقطِّب حاجبيك، وانصب ظهرك، وواجِه العالمِ بقلبٍ صادق وصريح. عندما تفكِّر بجسدك فإنكَ تفكِّر بروحك أيضاً، وكلٌ منهما سيساعد الآخر.

نها شيكا بابندي

ما هي المعجزة؟

هناك كافة أنواع التعريفات: شيء يتعلّق بقوانين الطبيعة، وبالشفاعة في لحظات الأزمة العميقة، وبالأمور المستحيلة علمياً، إلخ.

أنا لديّ تعريفي الخاص: المعجزة هي ما يملأ قلبَنا سلاماً. قد تتجلّى أحياناً على شكل شفاء، أو رغبة مُشبعة، لا يهم، النتيجة هي أنه، عندما تحدث المعجزة، نشعر بالامتنان على النعمة التي منحنا الله إياها.

منذ ثلاثين سنة، عندما كنتُ أعيش عصري الهيبّي، دعتني أختي لأكون عرّاب ابنتها الأولى. سُررتُ لهذا الاقتراح أيما سرور، وسررتُ أكثر لأنها لم تطلب مني أن أقصّ شعري (وكان آنذاك يصل أحياناً إلى خصري)، ولأنها لم تطلب مني هدية غالية لابنتي الروحية (إذ لم يكن معي المال لشرائها).

ولدت الفتاة، ومرّت السنة الأولى، ولم يحصل العماد. ظننتُ أن أختي غيرت رأيها، فكنتُ سأسألها عما جرى، وأجابتني: «ستبقى عرّاباً. ما حصل أني وعدتُ نها شيكا، وأريد أن أعمّد الفتاة في بابندي، لأنها وهبتني نعمة».

لم أكن أعرف أين بابندي، ولم أسمع قطّ بنها شيكا. مرّ العصر الهيبي وصرتُ موظفاً كبيراً في دار للأقراص الصلبة وأنجبت أختي

فتاة أخرى، وما من عماد. أخيراً، في عام 1978، اتُّخذ القرار وذهبت الأسرتان إلى بابندي ـ أسرتها وأسرة زوجها السابق. وهناك، اكتشفتُ أن هذه الـ نها شيكا التي لم تكن تملك المال حتى لبقائها على قيد الحياة، قد أمضت ثلاثين سنةً في بناء كنيسة وفي مساعدة الفقراء.

خرجتُ من فترة عاصفةٍ جداً، ولم أكن أؤمن بالله. أو بالأحرى، لم أكن أعير كثيراً من الاهتمام للبحث عن العالم الروحي. ما كان يهمّني هو أمور هذا العالم، والنتائج التي سأتمكّن من الحصول عليها. كنتُ قد غادرتُ أحلام شبابي ـ ومن بينها أن أصبح كاتباً ـ ولم يكن لدي النية في أن أحمل أوهاماً من جديد. وكنتُ في تلك الكنيسة لمجرّد أداء واجب اجتماعي. وبينما كنتُ أنتظر ساعة العماد قمتُ بجولةٍ حول المكان، ودخلتُ أخيراً إلى منزل نها شيكا المتواضع، قرب الكنيسة. خوانان ومذبح صغير مع بعض صور للقدّيسين ومزهرية تحوي وردتين حمراوين وثالثة بيضاء.

عفوياً، وبعكس كل ما كنتُ أفكّر به في ذلك الزمان، نذرتُ نذراً: *إذا ما تمكّنتُ يوماً من أن أصبح الكاتبَ الذي كنتُ أريد أن أكونه والذي لم أعد أريد أن أكونه، فسأعود إلى هنا عندما أبلغ الخمسين من عمري، وسأحمل وردتين حمراوين وثالثةً بيضاء.*

وكتذكار للعماد اشتريتُ صورةً لنها شيكا.

ولدى عودتي إلى ريو حصلت الكارثة: توقّفت حافلةٌ أمامي فجأةً، وأبعدتُ سيارتي في جزءٍ من الثانية، وكذلك تمكّن صهري من إبعاد سيارته أيضاً. والسيارة القادمة اصطدمت بالحافلة وحصل انفجارٌ وتوفّي عدة أشخاص. أوقفنا سيارتينا إلى جانب الطريق ونحن لا نعرف ماذا نفعل. بحثتُ في جيبي عن سيجارة فأخرجتُ صورة نها شيكا، وكانت صامتةً في رسالتها للحماية.

رحلةُ عودتي إلى الأحلام، والبحث الروحي، والأدب بدأت هنا،

وذات يوم، رأيتُ نفسي من جديد في المعركة الصحيحة، المعركة التي يخوضها المرء وقلبه عامر بالسلام، لأنها أتت من معجزة. ولم أنسَ أبداً الوردات الثلاث. وأخيراً، سنواتي الخمسون ـ التي تبدو لي الآن بعيدةً جداً ـ قد أتت.

وسرعان ما مرت. وأثناء كأس العالم، ذهبتُ إلى بابندي لكي أوفي نذري. رآني أحدهم أصل إلى كاكسامبو (حيث أمضيتُ الليل)، وأتى صحافيٌّ ليجري مقابلةً معي. وعندما رويتُ له ما أفعل هنا، قال:

«تكلَّم عن نها شيكا، لقد نُقل جثمانها هذا الأسبوع، وسيتم احتفال التطويب في الفاتيكان. ويجب على الناس أن يشهدوا».

قلت:

ـ لا. إنها قصة حميمة جداً. ولن أتكلّم إلا إذا حصلتُ على إشارة.

وفكرتُ بيني وبين نفسي: «ماذا ستكون الإشارة؟ فقط شخص يتكلّم باسمه!».

في اليوم التالي ركبتُ السيارة، حاملاً الأزهار، وقصدتُ بابندي. وقفتُ على بعد مسافة معيّنة من الكنيسة، وتذكّرتُ الموظّف الكبير في بيت الأقراص الصلبة الذي أتى إلى هنا منذ زمن طويل، واستعدت كل الأسباب التي دعتني إلى العودة. وبينما كنتُ أدخل البيت خرجت شابةٌ من محلٍّ للألبسة وقالت:

«رأيتُ أن كتابكَ مكتوب قد أُهدي إلى نها شيكا. وأؤكّد لكَ أنها كانت سعيدة».

لم تطلب مني شيئاً، ولكن كانت تلك هي الإشارة التي كنتُ أنتظرها. وهذه هي الإفادة العلنية التي كان يجب أن أؤدّيها.

إعادة بناء بيت

انتهى الأمر بأحد معارفي ممن لا يحسنون التوفيق بين الحلم وتحقيقه بأن وقع في مشكلات مالية خطرة: ورّط أشخاصاً آخرين، وسبّب الضرر للناس الذين لم يكن يريد أن يؤذيهم.

وبسبب عجزه عن دفع الديون التي أخذت تتراكم فكّر بالانتحار. كان يمشي في أحد الشوارع ذات ظهيرة عندما رأى بيتاً خَرِباً. قال لنفسه: «هذا البيت هو أنا». وفي تلك اللحظة انتابته رغبةٌ عنيفة في أن يعيد بناء هذا البيت.

وجد مالكه، وعرض تقديم الخدمات، وقَبِل المالك رغم أنه لم يفهم ماذا يمكن لصديقي أن يجنيه من عمله هذا. ذهبا معاً ليجلبا الآجر والخشب والإسمنت. أخذ صديقي يعمل بحبٍ دون أن يعرف حبّ ماذا أو حب من، ولكنه كان يشعر بأن حياته تتحسّن كلّما تقدّم في العمل.

وبعد سنة صار البيت جاهزاً، ومشكلاته الشخصية محلولة.

الصلاة التي نسيتُها

بينما كنتُ أمشي في شوارع ساو باولو منذ ثلاثة أسابيع، تلقّيتُ من صديقي إيدينيو بروشوراً يُسمّى «لحظة مقدّسة». كان مطبوعاً بأربعة ألوان على ورق ممتاز، لم يكن يلمّح إلى أية كنيسة أو عبادة، بل كُتبت على قفاه صلاة.

وكم كانت دهشتي عندما رأيتُ أن من وقّع هذه الصلاة هو أنا! كانت قد طُبعت في بداية الثمانينيات، على غلاف ديوان شعر. لم أكن أظن أنها ستقاوم الزمان، ولا أنها ستعود إليّ بهذه الطريقة الغامضة. ولكن عندما أعدتُ قراءتها لم أشعر بالخجل مما كتبت.

وبما أنها كانت على هذا البروشور، وبما أنني أؤمن بالإشارات، رأيتُ من المناسب أن أعيدها هنا. وكلّي أملٌ هنا أن أشجّع كل قارئ على أن يكتب صلاته الخاصة، سائلاً نفسَه وسائلاً الآخرين عما يراه أكثر أهميةً.

وبهذه الطريقة نضع في قلوبنا خفقاناً إيجابياً يجب أن يصل إلى كل من يحيطون بنا. وهاكم الصلاة:

مولاي، احمِ شكوكَنا، فالشكّ طريقة من طرق الصلاة. وهو ما يجعلنا نكبر لأنه يرغمنا على النظر بلا وجل إلى الأجوبة المتعدّدة على السؤال نفسه. ولكي يكون ذلك ممكناً،

مولاي، احمِ قراراتنا، فالقرار طريقةٌ من طرق الصلاة. وامنحنا الشجاعة لكي نعرف الاختيار، بعد الشك، بين هذا السبيل أو ذاك.

وأن تكون نَعَمُنا دائماً نعَماً، وأن تكون لاؤنا دائماً لاءً. وألا ننظر إلى ورائنا أبداً بعد أن نختار سبيلَنا، وألا ينهش الندمُ روحَنا، ولكي يكون ذلك ممكناً،

مولاي، احمِ أفعالَنا، فالفعل طريقةٌ من طرق الصلاة، واجعل خبزَنا اليومي ثمرَةَ ما نحمله في أنفسنا من مصائب. وأن نتمكّن بالعمل والفعل من اقتسام بعض الحب الذي نتلقّاه، ولكي يكون ذلك ممكناً،

مولاي، احمِ أحلامَنا، فالحلم طريقة من طرق الصلاة، واجعلنا نعرف كيف نحافَظ على شعلة الأمل والمواظبة متأجّجةً في قلوبنا مهما كانت أعمارنا وأوضاعنا، ولكي يكون ذلك ممكناً،

مولاي، امنحنا الحماسةَ دائماً، فالحماسة طريقة من طرق الصلاة، وهي التي تربطنا بالسماوات والأرض، بالرجال وبالأطفال، وهي التي تقول لنا أن الرغبة هامة وتستحقّ جهودَنا. وهي التي تؤكّد لنا أن كل شيء ممكن مادمنا ملتزمين كلياً بما نقوم به، ولكي يكون ذلك ممكناً،

مولاي، احمِنا، فالحياة هي الوسيلة الوحيدة التي نملكها لإظهار معجزتك، وأن تواصل الأرضُ تحويل البذرة إلى قمح، وأن نواصل تحويل القمح إلى خبز. وهذا غير ممكن إلا إذا امتلكنا الحب ـ وبالتالي، لا تتركنا أبداً للوحدة. امنحنا دائماً صحبتك، وصحبةَ الرجال والنساء الذين يملكون الشك، ويتصرّفون ويحلمون ويتحمّسون ويعيشون كما لو أن كل يوم مكرّسٌ كلياً لمجدك.

آمين

كوباكابانا، ريو دو جانيرو

كنتُ وزوجتي في زاوية شارع كونستانتني راموس في كوباكابانا. وكانت هناك امرأة في الستين من عمرها على كرسي متحرّك، ضائعةً بين الحشود. تطوّعت زوجتي لمساعدتها فقبلت طالبةً منا أن ننقلها إلى شارع سانتا كلارا.

كانت بضعُ أكياس بلاستيكية تتدلّى من الكرسي المتحرّك. وعلى الطريق روت لنا أن هذه الأكياس هي كل أملاكها، وأنها كانت تنام تحت الواجهات وتعيش من إحسان الناس.

وصلنا إلى المكان المحدَّد، وكان متسوّلون آخرون قد تجمّعوا فيه. أخرجت المرأة من أحد الأكياس زجاجتي حليب محفوظتين لمدة طويلة وأعطتهما للجماعة.

وأخيراً علّقت: «أحسنوا عليَّ، وأنا أُحسِن على الآخرين».

عيش الأسطورة الخاصة

أعتقد أن كل صفحة من هذا الكتاب تُقرأ في ما يقارب الثلاث دقائق. وبحسب الإحصاءات، خلال هذه الفترة الزمنية، ثلاثمائة شخص يموتون وستمائة وعشرون يولدون.

ربما يلزمني نحو نصف ساعة لكتابة الصفحة: أنا منكبّ على حاسوبي، كتبٌ إلى جانبي، وأفكار في رأسي وسيارات تمرّ في الخارج. كل شيء يبدو عادياً؛ ومع ذلك خلال هذه الدقائق الثلاثين مات ثلاثة آلاف شخص وستة آلاف ومئتا شخص رأوا نور العالم للمرة الأولى.

تُرى أين هي تلك الأُسَر التي تبدأ بالبكاء على فقد قريب، أو تبدأ بالضحك لقدوم ابن أو حفيد أو أخ؟

توقّفتُ وفكّرتُ قليلاً: قد يصل عددٌ من هؤلاء الأموات إلى نهاية مرض طويل ومؤلم، ومئات الأشخاص ارتاحوا لأن ملاك الموت أتاهم. ومن ناحية أخرى من المؤكّد أن المئات من الأطفال الذين وُلدوا للتو سوف يُترَكون في الدقيقة التالية ويصبحون في عِداد الموتى قبل أن أنهي هذا النص.

غير معقول، إحصاء بسيط رأيتُه بالمصادفة، ولاحظتُ فجأةً هذه الوداعات وهذه الاستقبالات، هذه الابتسامات وهذه الدموع. كم من الناس يغادرون هذه الحياة وحيدين في غرفهم دون أن يتنبّه أحدٌ لما يحدث؟ وكم يولدون خفيةً وسوف يُتركون عند باب أحد الملاجئ أو الأديرة؟

فكّرت: لقد شكّلتُ جزءاً من إحصائيات الولادات، وذات يوم سأكون من عداد الأموات. لحسن الحظ أني أعي تماماً أني سأموت. منذ أن سرتُ على طريق سان جاك فهمتُ ذلك، حتى لو تواصلت الحياة وصرنا جميعاً مخلَّدين فإن هذا الوجود سينتهي ذات يوم.

قلّما يفكّر الناس بالموت. إنهم يُمضون حياتهم في القلق من تفاهات حقيقية، ويؤجّلون الأمور، ويهملون اللحظات الهامة. لا يغامرون لأنهم يجدون في ذلك خطراً. يتذمّرون كثيراً ولكنهم يبدون جبناء لحظةَ اتخاذ القرار. يريدون أن يتغيّر كل شيء، ولكنهم يرفضون أن يتغيّروا.

لو أنهم فكّروا في الموت أكثر قليلاً، لما تأخروا عن المخابرة الهاتفية التي لم يقوموا بها. ولو كانوا أكثر جنوناً لما خافوا من نهاية هذا التجسيد، لأن المرء لا يمكنه أن يخشى شيئاً لا بدّ سيحصل.

يقول الهنود: «هذا اليوم يومٌ مناسبٌ جداً لمغادرة العالم». وقد أعلن ساحرٌ ذات يوم: «ليكن الموت جالساً دوماً بقربك، وهكذا عندما يتحتّم عليك أن تقوم بأشياء هامة فإنه سيمنحك القوة والشجاعة اللازمتين».

آمل أن تكون قد وصلتَ إلى هذا الحد، أيها القارئ. من العبث أن يكون العنوان قد أرعبك لأننا جميعاً سنموت عاجلاً أم آجلاً. وحدَه من يقبل ذلك يكون مستعدّاً للحياة.

أهمية الهر للتأمّل

عندما كتبتُ فيرونيكا تقرّر الموت، وهو كتاب عن الجنون، وجدتُ لزاماً عليّ أن أتساءل عن الجزء من تصرّفاتنا الذي فرضته علينا الضرورة، أو العبثية. لماذا نضع ربطة عنق؟ لماذا تدور الساعة باتجاه «عقارب الساعة»؟ إذا كنا نعيش في منظومة عِشرية فلماذا في اليوم أربعٌ وعشرون ساعة، وفي كل ساعة ستون دقيقة؟

في الواقع إن عدداً من القواعد التي نخضع لها في أيامنا هذه ليس له أساس. ومع ذلك إذا ما أردنا أن نتصرّف بصورة مختلفة فإننا سنُعَدّ من «المجانين» أو من «غير الناضجين».

بانتظار ذلك يخترع المجتمع أنساقاً تفقد أسباب وجودها مع الزمن، ولكنها تواصل فرضَ قواعدها. هناك قصة يابانية هامة توضح ما أقصده:

كان لدى معلّم بوذية زن هرٌّ، وهو المسؤول عن معبد مايو كاجي، وكان مولعاً فيه أشدّ الولع. وهكذا، أثناء دروس التأمّل كان يُبقيه إلى جانبه لكي يستفيد من صحبته أكبر فائدة ممكنة.

وذات صباح، وُجد السيد ميتاً، وكان هرماً جداً. أخذ تلميذه ذو المرتبة الأعلى مكانه.

سأل الرهبان الآخرون: «وماذا سنفعل بالهر؟».

وفاءً لذكرى سيّده قرّر السيد الجديد أن يواصل الهر حضور دروس بوذية الزن.

لاحظ تلاميذ من المعابد المجاورة، وكانوا يسافرون كثيراً في المنطقة، أن في أحد أشهر معابد المنطقة هراً يشارك في التأمّل. وأخذت القصة تنتشر.

مرّت سنوات ومات الهر. ولكن تلاميذ المعبد كانوا قد اعتادوا على الهر إلى درجة أنهم سارعوا إلى إيجاد هر آخر. وفي تلك الأثناء، سعى تلاميذ المعابد الأخرى إلى الحصول على هررة لتأمّلاتهم: فقد كانوا يعتقدون أن الهر كان سبب شهرة معبد مايو كاجي وتميّزه، ناسين أن السيد القديم كان معلّماً ممتازاً.

مرّ جيل، وظهرت كتبٌ تقنية عن أهمية الهر في تأمّل الزن. وكتب أستاذ جامعي أطروحة ـ قبلتها الهيئة الأكاديمية ـ مؤكّداً أن للهر قدرة على زيادة التركيز البشري وعلى إزالة الطاقات السلبية.

وهكذا، خلال قرن من الزمان، عُدّ الهر جزءاً هاماً من دراسة بوذية الزن في تلك المنطقة.

ثم ظهر سيّد، وكان يتحسّس من وبر الهررة، فقرّر إبعاد الهر عن ممارساته اليومية مع طلابه.

وحدثت حركة رفض عنيفة، ولكن السيد أصرّ. وبما أنه كان معلّماً بارعاً فإن حصيلة الطلاب الدراسية بقيت نفسها، رغم غياب الهر.

شيئاً فشيئاً، أبعد القائمون على المعابد الأخرى هذه الحيوانات عن دروسهم، لا سيّما أنهم كانوا في بحثٍ دؤوب عن أفكار جديدة، وأنهم تعبوا من البحث عن طعام للهررة. وبعد عشرين سنة ظهرت أطروحات ثورية تحمل عناوين مُقنِعة مثل: *أهمية التأمّل دون هر أو موازنة عالم الزن بقوة الروح وحدها دون مساعدة الحيوانات.*

مر قرنٌ آخر وخرج الهر نهائياً من طقوس تأمل الزن في تلك

المنطقة. ولكن لزمت مئتا سنة لكي يعود كل شيء إلى حالته العادية ـ لم يتساءل أحدٌ خلال هذه الفترة لماذا كان الهر موجوداً.

كم منا يجرؤ على أن يسأل: لماذا يجب عليّ أن أتصرّف بهذه الطريقة؟ وإلى أية درجة نستخدم «الهررة» غير المفيدة التي لا نملك الشجاعة على إبعادها، لأنه قيل لنا إن «الهررة» هامة لكي يسير كل شيء على ما يرام؟

لماذا، خلال هذه السنة الأخيرة من الألفية، لا نبحث عن طريقة للتصرّف مختلفة؟

لا أستطيع أن أدخل

قرب أوليتي، في إسبانيا، هناك قصر مهدّم. قرّرتُ أن أزوره. وعندما صرتُ أمامه، قال لي رجلٌ يقف عند الباب:

«لا يمكنكَ أن تدخل!».

أكّد لي حدسي أنه يمنعني من أجل متعة المنع فقط. شرحتُ له أني آتٍ من بعيد، وحاولتُ أني أعطيه بخشيشاً، وأن أكون لطيفاً معه، وقلتُ إن هذا القصر مهدَّم ـ وفجأةً صار مهماً جداً في نظري أن أدخله.

كرّر الرجل: «لا يمكنك أن تدخل».

بقي حلٌّ وحيد: أن أتابع، وانتظار أن يمنعني جسمياً. توجّهتُ نحو الباب، نظر إليّ، دون أن يفعل شيئاً.

وبينما كنتُ خارجاً رأيتُ سائحين يقتربان ويدخلان. لم يحاول العجوز أن يمنعهما. شعرتُ، أنه بفضل مقاومتي، قرّر الرجل أن يسنّ قوانين عبثية. أحياناً يطلب منا العالم أن نكافح من أجل الأمور التي لا نعرفها لأسباب لن نعرفها أبداً.

أوضاع الألفية الجديدة

1) جميع الناس مختلفون. ويجب أن يبذلوا جهدهم لكي يبقوا كذلك.
2) لكل كائن بشري طريقتان للتصرّف: الفعل والتأمّل. والطريقتان تؤدّيان إلى المكان نفسه.
3) ولكل كائن بشري خصلتان: القدرة والعطاء. القدرة تقود الإنسان إلى مواجهة قَدَره؛ والعطاء يجبره على اقتسام أفضل ما لديه مع الآخرين.
4) لكل كائن بشري منُحت فضيلة: القدرة على الاختيار. ومن لا يستخدم هذه الفضيلة تتحوّل إلى لعنة ويختار آخرون بدلاً منه.
5) لكل كائن بشري نعمتان: نعمة التصويب بطريقة صحيحة، ونعمة الخطأ. في الحالة الثانية هناك دائماً تعليم يقوده إلى الطريق القويم.
6) لكل إنسان قدرة جنسية، ويجب أن يمارسها دون عقدة ذنب مادام لا يجبر الآخرين على ممارستها معه.
7) لكل إنسان أسطورة شخصية عليه أن يتمّها، وهذه الأسطورة هي سبب وجوده في هذا العالم. وتتجلّى أسطورته الشخصية من خلال حماسته لمهمّته.

مقطع وحيد: يمكن للإنسان أن يهمل أسطورته الشخصية لبعض الوقت، بشرط ألا ينساها وأن يعود إليها عندما يكون ذلك ممكناً.

8) لكل رجل جانب أنثوي ولكل امرأة جانب ذكوري. ومن الضروري اللجوء إلى الانضباط مع الحدس، واستخدام الحدس مع الموضوعية.

9) على كل إنسان أن يتقن لغتين: لغة المجتمعات ولغة الإشارات. الأولى تساعد على التواصل مع الآخرين، والثانية تساعد على فهم رسائل الله.

10) لكل إنسان الحق في البحث عن الفرح، ونعني بالفرح ما يرضيه وليس بالضرورة ما يرضي الآخرين.

11) على كل إنسان أن يبقي شعلة الجنون متأجّجة في داخله. وعليه أن يتصرّف كإنسان عادي.

12) وحدَها الأمور التالية تُعدّ من الأخطاء الفادحة: عدم احترام حق أخيك الإنسان، أن يشلّك الخوف، أن تشعر بالذنب، الاعتقاد بأنك لا تستحقّ السعادة ولا التعاسة اللتين تصيبانك في الحياة، وأن تبدو جباناً.

مقطع 1: نحن نحب أعداءنا ولكننا لا نتحالف معهم. لقد وُضعوا على طريقنا لكي نمتحن سيوفنا، وهم يستحقّون احترام نضالنا.

مقطع 2: نحن نختار أعداءنا.

13) كل الأديان تؤدّي إلى الله، وكلها تستحقّ الاحترام ذاته.

مقطع وحيد: الإنسان الذي يختار ديناً، يختار أيضاً طريقةً جماعية في العبادة وفي اقتسام الأسرار. ومع ذلك، هو وحده مسؤول عن أفعاله على الطريق، وليس لديه الحق أن يحمّل الدين وزر قراراته.

14) لقد تحدّد الجدار الرقيق الذي يفصل بين المقدّس والمدنّس. وبدءاً من الآن، كل شيء مقدّس.

15) كل ما يُفعل في الحاضر يؤثّر على المستقبل بالنتيجة، والماضي بالفداء.

16) التصرفات المتعاكسة ملغاة.

الهدم والبناء

دعيت لزيارة كونجامينا حيث يوجد معبد بوذي زن. ولدى وصولي فوجئت: هذا البناء الجميل جداً موضوع وسط غابة واسعة، ولكن قرب أرض فسيحة ما تزال بائرة.

سألتُ عن سبب حال هذه الأرض وشرح لي الدليل:

«إنه مكان البناء الجديد. فكل عشرين سنة نهدم هذا المعبد الذي تراه ونبني معبداً آخر بجانبه. هكذا يتمكّن الكهّان النجارون والبنّاؤون والمعماريون من ممارسة قدراتهم وأن يعلّموها عملياً لتلاميذهم. كذلك نحن نبينّ أن لا شيء في هذه الحياة مخلَّدٌ، وأن المعابد نفسها تبقى في عملية تحسين دائم».

الفارس والإيمان

يشبّه هنري جيمس التجربة بشبكة عنكبوت هائلة تمتد من حولنا، لا يمكنها أن تلتقط ما هو ضروري فحسب، بل الغبار الموجود في الهواء أيضاً.

في معظم الأحيان، ما نسمّيه «تجربة» لا يعدو كونه مجموعَ هزائمنا. إذن، ننظر إلى أمامنا بخشية، كشخصٍ اقترف كثيراً من الأخطاء في حياته، ولا نملك الجرأة على القيام بالخطوة التالية.

في هذه اللحظة، يُستحسن أن نذكّر بكلمات لورد سالسبوري: «إذا ما وثقتم ثقةً تامةً بالأطبّاء، فسترون أن كل شيء سيء بالنسبة إلى الصحة. وإذا ما وثقتم ثقة تامة برجال الدين فسترون أن كل شي خطيئة. وإذا ما وثقتم ثقةً تامة بالعسكر فسترون أن الأمان المطلق غير موجود».

يجب قبول الأهواء وعدم الاستسلام لحماسة الغزوات؛ فهي تشكّل جزءاً من الحياة وتُسعد كل من يشارك فيها. ولكن فارس النور لا يبتعد عن الأمور الدائمة، ولا عن الأواصر التي نشأت بقوة مع الزمن: وهو يُحسن التمييز بين العابر والأبدي.

ولكن هناك لحظة تختفي فيها الأهواء بلا سابق إنذار. ورغم حكمته كلّها، فإنه يدَع اليأس يسيطر عليه: بين ساعة وأخرى لا يعود الإيمان كما كان، ولا تجري الأمور كما حلم بها، وتظهر المآسي بطريقة ظالمة وغير متوقّعة، ويأخذ بالاعتقاد أن صلواته لم تعد مسموعة.

يواصل الصلاة وممارسة عبادات دينه، ولكنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه؛ فالقلب لم يعد يستجيب كما في السابق، وتبدو الكلمات بلا معنى.

في هذه اللحظة ليس هناك إلا سبيل واحد ممكن: مواصلة الممارسة. الصلاة من باب تأدية الواجب، أو من باب الخوف، أو من أجل أي سبب كان ـ ولكنه يواصل الصلاة. يصرّ حتى وإن بدا كل شيء عبثياً.

الملاك المكلّف جمع كلمات الفارس، وهو المسؤول أيضاً عن الفرح العارم الذي يجلبه الإيمان، ذهب في نزهة. ولكنه لن يلبث أن يعود ولن يعرف أين يوجد إلا إذا سمع صلاةً أو طلباً على شفتيه.

تروي إحدى الأساطير أنه في دير بييدرا، وبعد جلسة صلوات صباحية منهكة سأل الراهب المبتدئ رئيس الدير إن كانت الصلوات تقرّب الله من البشر.

أجابه الكاهن: «سأجيبك بسؤال آخر: هل كل هذه الصلوات التي تصلّيها سوف تجعل الشمسَ تشرق غداً؟

ـ بالطبع لا! فالشمس تشرق لأنها تتبع ناموساً كونياً!

ـ حسن، هذا يجيب على سؤالك. الله قريب منا، بغض النظر عن صلواتنا التي نصلّيها».

وثار المبتدئ قائلاً:

«هل تقصد أن صلواتنا بلا فائدة؟

ـ على الإطلاق. إذا لم تستيقظ في ساعة مبكرة فلن ترى الشمس تشرق. وإذا لم تصلِّ فلن تشعر بحضور الله رغم أنه قريب منك».

الصلاة والمراقبة: ذلك يجب أن يكون شعار فارس النور. إذا ما راقبتم فقط فسينتهي بكم الأمر بأن تروا الأشباح حيث هي غير موجودة. وإذا ما اكتفيتم بالصلاة فلن يكون لديكم الوقت لتقوموا بالأعمال التي يحتاج العالم إليها.

وتروي أسطورة أخرى، في الـ فربا سينيوريوم هذه المرة، أن الأبيه باستور كان يقول غالباً أن الأبيه جان قد صلّى كثيراً إلى درجة أنه لم يعد لديه ما يشغل باله ـ فقد ذُلّلت أهواؤه.

وصل كلام الأبيه باستور إلى مسامع حكيم في دير سيتا فاستدعى الرهبان المبتدئين بعد العشاء وقال لهم:

«لقد سمعتم ما قيل إن الأبيه جان لم يعد لديه إغواءات يقهرها. إن غياب الصراعَ يُضعف الروح. سوف نطلب من مولانا أن يرسل للأبيه جان إغواءً قوياً، فإن تغلّب عليه نطلب آخرَ. وعندما يكافح من جديد الإغواءات، فسوف نصلّي لئلا يقول أبداً: «اللهم أبعد هذا الشيطان عني». سوف نصلّي لكي يطلب: «اللهم امنحني القوة لمواجهة الشر».

في مرفأ ميامي

قال لي أحد أصدقائي: «أحياناً نعتاد على ما نراه في الأفلام وفي النهاية ننسى القصة الحقيقية». وبينما كنا نشاهد فيلم مرفأ ميامي سألني: «هل تتذكّر الوصايا العشر؟».

بالطبع، أتذكّرها. موسى ـ شارلتون هستون ـ في لحظة ما يرفع عصاه فتنشقّ المياه ويعبر الشعب العبري البحر.

لاحظ صديقي: «في الكتاب المقدّس، الأمر مختلف». «هناك الله يأمر موسى: «قل لبني إسرائيل أن يمشوا». وبعد أن بدؤوا مسيرهم رفع موسى عصاه وانشقّ البحر الأحمر».

وحدها الجرأة على الطريق هي التي تسمح بأن يظهر الطريق.

التصرّف بدافع

روى الأب زيكا، كاهن كنيسة القيامة في كوباكابانا أنه بينما كان في حافلة سمع فجأةً صوتاً يقول له إن عليه أن يقف ويعظ بكلام المسيح.

أخذ زيكا يتحدّث مع الصوت: «سيعدّونني مضحكة، فليس هذا مكان الوعظ». ولكن شيئاً ما بداخله كان يلحّ عليه أن يتكلّم فتوسّل قائلاً: «أنا خجول، أرجوكَ ألا تطلب مني هذا».

لكن الدافع الداخلي كان كبيراً.

عند ذلك تذكّر وعوده بأن يستجيب لرغبات المسيح جميعاً. نهض وهو يذوب خجلاً، وطفق يتحدّث عن الإنجيل. أنصت الجميع صامتين. كان ينظر إلى كل راكب، وقليلٌ منهم حوّل بصرّه عنه. قال كل ما جال بخاطره، ثم أنهى موعظته وجلس.

حتى هذا اليوم لا يعرف أيةَ مهمةٍ أدّى، ولكنه على قناعة راسخة بأنه أدّى مهمة.

مجد عابر

«SIC TRANSIT GLORIA MUNDI» هكذا عرّف بولس الرسول الظرف الإنساني في رسالته: مجد العالم عابر. ورغم أن الإنسان يعرف ذلك فإنه في سعي دؤوب إلى عرفان لعمله. لماذا؟ يقول أحد أكبر الشعراء البرازيليين، فنسيوس دي موراييس، في إحدى أغانيه:

«ومع ذلك يجب أن نغنّي

أكثر من أي وقت يجب أن نغنّي».

هاتان الجملتان لفنسيوس دي موراييس رائعتان، متذكّراً جرترود شتاين في قصيدتها: «الوردة وردة، إنها وردة». يقول ببساطة أنه يجب الغناء. هو لا يعطي تفسيرات، ولا يبرّر كلامه، ولا يستخدم استعارات. عندما تقدّمتُ بترشيحي للأكاديمية البرازيلية للآداب، وبعد أن أجريتُ الطقوس الاعتيادية القائمة على الدخول في تواصل مع أعضائها، سمعتُ الأكاديمي خوسيه مونتيللو يقول لي شيئاً مشابهاً: «على كل إنسان أن يسير على الطريق المار من قريته».

لماذا؟ وماذا في هذا الطريق؟

ما هي تلك القوة التي تدفعنا إلى ما بعد الراحة مما هو مألوف وتجعلنا نواجه التحديات، حتى لو علمنا أن مجد العالم عابر؟

أعتقد أن هذا الدافع الداخلي يُسمّى البحث عن معنى الحياة.

خلال سنوات بحثتُ في الكتب وفي الفن وفي العلم وفي الدروب

الخطرة أو المريحة التي مشيئتُها، عن جواب نهائي لهذا السؤال. وجدتُ أجوبةً كثيرة: بعضها أقنعني خلال سنوات، وبعضها الآخر لم يقاوم يوماً واحداً من التمحيص، ولكنّ أياً من هذه الأجوبة لم يكن قوياً إلى درجة أني أستطيع أن أقول الآن: معنى الحياة هو كذا.

واليوم، أنا مقتنع أن هذا الجواب لن يُعطى لنا أبداً خلال هذا الوجود، رغم أننا عندما نقف أمام الخالق في النهاية، فسوف نفهم كل الفرص التي قُدّمت لنا، والتي قبلناها أو رفضناها.

في عظته عام 1890، تحدّث كاهن الرعية هنري دروموند عن ذلك اللقاء قائلاً:

«في تلك اللحظة، لن يكون سؤال الإنسان الكبير: كيف عشتُ؟ بل سيكون كيف أحببتُ؟

وسيكون الامتحان الأخير لكل سعي هو مدى حبّنا. ولن تؤخذ أفعالنا بالحسبان، ولا معتقداتنا ولا نجاحاتنا.

لن ندفع ثمن هذا، ولكننا سنحاسَب على طريقتنا في محبة أخينا الإنسان. والأخطاء التي ارتكبناها سوف تُنسى، ولن نحاسب أبداً على الشر الذي فعلناه، بل سنُسأل على الخير الذي لم نفعله. لأن إبقاء الحب متّقداً في النفس هو الذهاب للقاء روح الله، ذلك هو الاختبار الذي لم نلاقِه قطّ، وأنه أحبّنا بلا جدوى».

مجد العالم عابر، وليس هو ما يمنح مداه لحياتنا ولكن الاختيار الذي نقوم به لاتباع أسطورتنا الشخصية، والإيمان بيوتوبياتنا والنضال من أجلها. نحن جميعاً أبطال وجودنا، وغالباً ما يكون الأبطال المجهولون هم من يتركون البصمات الأكثر ديمومة.

تروي أسطورة يابانية أن أحد الكهّان المتحمّسين جداً لجمال كتاب تاو ـ تو ـ كينغ قرّر أن يدفع أموالاً لترجمة هذا الكتاب ونشره بلغة بلاده. وأمضى عشر سنوات حتى جمع المبلغ الكافي.

ولكن الطاعون ضرب بلاده فقرّر أن ينفق المال لتخفيف الألم عن المرضى. وبعد أن عاد الوضع مستقرّاً عاد الكاهن إلى توفير المال اللازم لنشر كتاب تاو.

ومضت عشر سنوات أخرى، وبينما كان يتأهّب لنشر الكتاب طغى مدٌّ بحري على البلاد وترك مئات الأشخاص بلا مأوى. وأنفق الكاهن ماله من جديد على بناء بيوت لمن فقدوها. ومرّت عشر سنوات أُخَر، وتمكّن من جمع المال، وأخيراً تمكّن اليابانيون من قراءة كتاب تاو ـ تو ـ كينغ.

قال الحكماء: في الواقع لقد طبع هذا الكاهن الكتابَ ثلاث مرّات، طبعتان غير مرئيتين وطبعة ظاهرة. لقد آمن بيوتوبياه، وخاض معركته الصحيحة وأبقى على إيمانه بهدفه، ولكنه بقي متنبّهاً لأخيه. فلنكن جميعاً مثله: الكتب غير المرئية، المولودة من الكرم نحو أخينا الإنسان، هي أحياناً بأهمية الكتب التي تملأ مكتباتنا.

الإحسان المهدّد

منذ بعض الوقت، ساعدت زوجتي إيبانيما سائحاً سويسرياً قال إنه ضحية نشّالين صغار. وأكّد متحدّثاً بلغة برتغالية سيئة جداً أنه بلا جواز سفر وبلا مال ولا يعرف أين سينام.

دفعت له زوجتي ثمن الغداء، وأعطته مبلغاً كافياً لكي يُمضي ليلته في الفندق، بينما يتصل بسفارته، وذهب. وبعد عدة أيام أعلنت جريدة كاريوكا أن هذا «السائح السويسري» كان في الواقع أفّاقاً مبدِعاً إضافياً، يتكلّم لهجةً خيالية ويستغلّ طيبة قلوب الناس الذين يحبّون ريو ويرغبون في تخليص مدينتنا من الصورة السلبية التي أصبحت «بطاقتها البريدية» بحق أو بخطأ.

عندما عرفت زوجتي الخبر اكتفت بالتعليق التالي: «ليس هذا ما سيمنعني من مساعدة أيٍّ كان».

ذكّرني تعليقها بقصة الحكيم الذي عاد ذات ظهيرة إلى مدينة أكبر. لم يعلّق الناس أهمية كبرى على حضوره، ولم تكن معلوماته تعني أحداً. وبعد حين صار موضوعاً لسخرية سكان المدينة.

وذات يوم، بينما كان يتنزّه في الشارع الرئيسي في أكبر، أخذت مجموعة من الرجال والنساء تشتمه، وبدلاً من أن يتظاهر يتجاهلهم وإهمالهم توجّه نحوهم وباركهم.

فأعلن أحد الرجال:

«هل نحن أمام شخص أصم؟ نحن نصرخ بالفظاعات نحوه وهو يردّ علينا بكلام جميل!»

ردّ عليه الحكيم:

ـ لا أحد منا يستطيع أن يقدّم إلا ما يملك».

الساحرات والغفران

في 31 تشرين الأول 2004 استفادت مدينة برستوبانس، في سكوتلندا، من قانون إقطاعي، أُلغي في الشهر التالي، ومنحت العفو الرسمي عن 81 شخصاً أعدموا بسبب ممارسة السحر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكذلك مُنحت قططهم العفو.

بحسب الناطق الرسمي لبارونات برستونغرانج ودولفنستاون «لقد حُكم على معظمهم دون أي دليل ملموس، بل استناداً إلى شهود الاتهام فقط الذين قالوا إنهم شعروا بوجود أرواح شرّيرة».

لا مجال هنا للتذكير بكل خروقات محاكم التفتيش مع غرف تعذيبها ومحارقها المستوحاة من الحقد والانتقام. ولكن ثمة أمر يحيّرني في هذا الخبر.

المدينة والبارون الرابع عشر لبرستونغرانج ودولفينستاون «يمنحان العفو» لأشخاص أعدموا بطريقة عنيفة. نحن الآن في القرن الحادي والعشرين، وأبناء المجرمين الحقيقيين، أولئك الذين قتلوا أبرياء، ما يزالون يحكمون على أنفسهم بحق «العفو».

بالانتظار، صيدٌ جديد للساحرات بدأ يكسب. هذه المرة، ليس السلاح حديداً أحمر، بل السخرية أو القمع. كل أولئك الذين يطوّرون موهبةً (اكتُشفت بالمصادفة بصورة عامة)، يجرؤون على الكلام عن قدرتهم، غالباً ما نُظر إليهم بريبة؛ أو أن أهاليهم، أو أزواجهن أو زوجاتهم يمنعونهم من أن يقولوا أي شيء حول هذا الموضوع.

ولكوني اهتممتُ منذ صغري بما يسمى هذه «العلوم الخفية» فقد دخلتُ في تواصل مع هؤلاء الأشخاص.

ظننتهم مشعوذين، طبعاً. كرّستُ وقتي وحماستي لـ «أساتذة» أسقطوا القناع فيما بعد مبيّنين الفراغ الكامل الذي كانوا يرتعون فيه. شاركتُ بطريقةٍ غير مسؤولة في بعض الجماعات، ومارستُ طقوساً ودفعتُ ثمناً غالياً. وكل ذلك باسم بحثٍ طبيعي للغاية عند الإنسان: ألا وهو إيجاد سر الحياة.

ولكني التقيت بعدد من الأشخاص كانوا حقاً قادرين على تحريك قوى تتجاوز فهمي. رأيتُ الزمن يتغيّر، مثلاً. ورأيتُ عمليات بلا تخدير. وذات مرة (ذات يوم استيقظتُ بكثيرٍ من الشكوك في القدرة المجهولة عند الإنسان) وضعتُ إصبعي في شقّ مصنوع بسكين صدئة. صدقوا ذلك إن شئتم ـ أو اسخروا إذا كانت السخرية الطريقةَ الوحيدة لقراءة ما أنا مستغرق في وصفه لكم ـ، ووجدتُ المعدن يتحوّل، وأطباقاً تنفتل، وأنواراً تضيء في الهواء من حولي، لأن أحدهم قال إن ذلك سيحدث (وحدث). وكان هناك شهود في كل مرة تقريباً، قليلو الاقتناع بصورة عامة. في معظم الحالات بقي هؤلاء الشهود غير مصدّقين، وهم يظنّون أن هذا لا يعدو كونه «لعبة» متقنة. آخرون قالوا إن هذا «من فعل الشيطان». أخيراً، قلّةٌ كانوا يعتقدون إنهم في حضرة ظواهر تتجاوز الفهم البشري.

تمكّنتُ من رؤية هذا كلّه في البرازيل، في فرنسا، وفي إنكلترا وفي سويسرا وفي المغرب، وفي اليابان. وماذا حصل لمعظم الأشخاص الذين نجحوا، لنقُل في تغيير قواعد الطبيعة «الخالدة»؟ المجتمع يعدّهم دائماً حالات هامشية: لو كان فاعلو هذه الظواهر لايستطيعون تفسيرها، لما وجدت. والغالبية العظمى من هؤلاء الأشخاص لا يفهمون أيضاً لماذا هم قادرون على القيام بأشياء مفاجئة. وينتهي بهم الأمر بأن يختنقوا بمواهبهم.

لا أحد منهم سعيد. وهم ينتظرون جميعاً اليومَ الذي يؤخذون

فيه على محمل الجد. يأملون جميعاً في تفسير علمي لقدراتهم الخاصة (وبرأيي، ليس هذا هو الطريق الصحيح). كثيرون منهم يُخفون إمكانياتهم ويتألمون لذلك ـ لأنهم يستطيعون أن يساعدوا الناس ولا يتمكّنون من ذلك. في الواقع أعتقد أنهم ينتظرون أيضاً «العفو الرسمي» من أجل اختلافهم.

بالتمييز بين الحبة السليمة والزؤانة، وبعدم انجرارنا إلى اليأس بسبب وجود كثير من الشعوذة، أعتقد أن علينا أن نتساءل من جديد: علام نحن قادرون؟

وعلينا أن نذهب بهدوء، بحثاً عن إمكانياتنا الواسعة.

حول موضوع الإيقاع والطريق

«في معرض مداخلتك حول موضوع طريق سان ـ جاك لم تتطرّق إلى نقطة هامة». قالت لي ذلك امرأة قامت بالحج. خرجنا من بيت غاليس في مدريد، حيث فرغتُ للتو من إعطاء محاضرة.

بالطبع لم أتعرّض للنقاط كلّها، لأنني كنتُ أنوي ببساطة أن أتقاسم تجربتي قليلاً. ومع ذلك، دعوتُها إلى تناول فنجان من القهوة وأنا أتشوّق لمعرفة ما عدّته إغفالاً مهماً.

قالت لي بيغونيا ـ وهذا كان اسمها:

«لاحظتُ أن معظم الحجّاج على طريق سان ـ جاك، أو على طريق الحياة، يسعون دائماً إلى تتبّع خطى الآخرين.

في بداية حجّي، كنتُ أحسّ بالتعب، وكنتُ أطلب من جسمي أكثر مما كان يستطيع أن يعطي، كنتُ متوتّرةً باستمرار، وانتهى بي الأمر بأن تولّدت لديّ مشكلات في أوتار القدم اليسرى. واستحال عليّ أن أمشي خلال يومين ففهمتُ أني لن أستطيع أن أصل إلى سان ـ جاك إلا إذا تبعتُ إيقاعي الشخصي.

أنفقتُ وقتاً أكثر من الآخرين، واضطررتُ للمشي وحيدةً في كثيرٍ من مراحل الطريق ـ ولكني نجحتُ في الوصول إلى النهاية، لمجرّد أني احترمتُ إيقاعي الشخصي. ومن الآن فصاعداً، سوف أطبّق هذا على كل ما يجب أن أفعله في الحياة: سأحترم إيقاعي الخاص».

سافروا بطريقة مختلفة

اكتشفتُ وأنا شاب صغير أن السفر طريقتي المثلى للتعلّم. احتفظتُ بروح الحاجّ هذه وقرّرتُ أن أتطرّق في هذه السطور إلى بعض الدروس التي تعلّمتُها آملاً أن تكون مفيدةً لحجّاج آخرين من أمثالي:

1) تجنّب المتاحف. قد تبدو النصيحة سخيفة، ولكن لنفكّر قليلاً معاً: إذا ما وجدتَ نفسكَ في مدينة أجنبية، أليس من المفيد البحث عن الحاضر أكثر من الماضي؟ قد يشعر الناس بأنفسهم مضطرّين إلى الذهاب إلى المتاحف لأنهم تعلّموا في صغرهم أن السفر يعني أن يلتقوا بهذا الشكل من الثقافة. من الواضح أن المتاحف مفيدة، ولكنها تتطلّب وقتاً وموضوعية، وعليكَ أن تعرف ما ترغب في أن تراه، وإلا خرجتَ منه بانطباع أنك رأيت كميةً من الأمور الأساسية للحياة، ولكنك لم تعد تتذكّرها.

2) ارتَدْ البارات. ففيها تتجلّى حياة المدينة، بعكس المتاحف. البارات ليست ديسكوتيكات، بل هي أماكن يشرب فيها الإنسان كأساً، ويفكّر بالوقت، وهو مستعدّ دائماً لفتح حديث. اشترِ جريدةً، واستمتع بتأمّل من يأتي ومن يذهب. وإذا ما بدأ أحدهم حديثاً فشارك فيه مهما كان موضوعه سخيفاً، فلا أحد يستطيع أن يحكم على جمال طريقٍ ما إذا لم ينظر إلا إلى مدخله.

3) كن متوفّراً. الدليل السياحي الأفضل هو شخص يسكن في المكان، وهو يعرف كل شيء، وهو فخور بمدينته، ولكنه لا يعمل في

وكالة. اخرج إلى الشارع، واختر الشخص الذي تودّ التحدّث معه، واطلب معلومات (أين توجد الكاتدرائية الفلانية؟ أين البريد؟) وإذا لم يكفك ذلك، فحاول مع شخصٍ آخر ـ وأنا أؤكّد لك أنك ستكون قد وجدت رفقةً ممتازة في نهاية النهار.

4) سافر بمفردك أو مع رفيق أو رفيقة. سيكون ذلك أصعب، ولن يهتمّ أحدٌ بك، ولكنها الطريقة الوحيدة لكي تغادر بلادك حقاً. الأسفار على شكل مجموعات هي طريقة مقنّعة للذهاب إلى بلد أجنبي، مع التحدّث باللغة الأم، نزولاً عند رغبة قائد المجموعة الذي يكون منشغلاً بأحاديث المجموعة أكثر من انشغاله بالمكان الذي يزورونه.

5) لا تُقم مقارنات. لا تقارن شيئاً، لا الأسعار ولا النظافة ولا نمط الحياة ولا وسائل النقل! فأنت لم تسافر لكي تثبت لنفسك أنك تعيش عيشةً أفضل من الآخرين ـ ما تودّ أن تعرفه في الواقع هو كيف يعيش الآخرون، وما يمكنهم أن يعلّموك، وكيف يواجهون الواقع، وما في حياتهم من أمور غير عادية.

6) افهم أن الجميع يفهمونك. حتى لو لم تتكلّم لغتهم، فلا تخف: لقد سافرتُ إلى أماكن كثيرة لم أكن أملك أية وسيلة للتواصل فيها بالكلام، وأخيراً وجدتُ نجدةً، ووجدتُ طريقي، ووجدتُ اقتراحات مفيدة، وحتى صديقات. بعض الناس يعتقدون أنهم إذا سافروا بمفردهم سوف يخرجون إلى الشارع ويضيعون إلى الأبد. يكفي أن يحمل الإنسان بطاقة الفندق في جيبه، وفي أقصى الأحوال يركب سيارة أجرة ويُري البطاقة للسائق.

7) لا تبالغ في الشراء. أنفق أموالك على تذكارات لا يمكنك أن تنقلها: مسرحيات جيدة أو مطاعم أو نزهات. ففي أيامنا هذه، بوساطة السوق الشاملة والإنترنت، يمكنك أن تحصل على كل شيء دون أن تضطر لدفع أجر وزن زائد.

8) لا تحاول أن ترى العالم كلّه في شهر. فمن الأفضل أن تبقى في

مدينةٍ ما أربعة أيام أو خمسة من أن تزور أربع مدن أو خمسة في أسبوع. المدينة امرأة صاحبة نزوات، يلزمها وقت لإغرائها ولكي تنكشف بصورة كاملة.

9) السفر مغامرة. يقول هنري ميلر من الأفضل لك أن تكتشف كنيسة لم يسمع بها أحد من أن تذهب إلى روما وتكون مضطرّاً لزيارة كنيسة السيكستين مع مئتي ألف سائح يصرخون في أذنيك. اذهب إلى كنيسة السيكستين، ولكن اسمح لنفسك أن تضيع في الشوارع، وأن تمشي في الزواريب، وأن تشعر بالحرية في البحث عن أمر مجهول بالنسبة إليك، ولكنك ستجده بكل تأكيد وسوف يغيّر حياتك.

حكاية جنّيات

تروي ماريا إيميليا فوس التي حجّت إلى سان ـ جاك القصة التالية:

حوالى العام 250 قبل الميلاد، في الصين القديمة، كان أمير منطقة تينغ ـ زدا على وشك أن يتوّج ملكاً، ولكن كان عليه أن يتزوّج أولاً، بحسب القانون.

وبما أن الأمر يتعلّق باختيار إمبراطورة مقبِلة، كان على الأمير أن يجد فتاةً يستطيع أن يمنحها ثقته العمياء. وتبعاً لنصيحة أحد الحكماء قرّر أن يدعو بنات المنطقة جميعاً لكي يجد الفتاة الأجدر بينهن.

عندما سمعت امرأةٌ عجوز، وهي خادمة في القصر منذ سنوات، بهذه الاستعدادات للجلسة، شعرت بحزن جامح لأن ابنتها كانت تكنّ حباً دفيناً للأمير.

وعندما عادت إلى بيتها حكت الأمر لابنتها، وفوجئت بأن ابنتها تنوي أن تتقدّم للمسابقة هي أيضاً.

لفّ اليأس المرأة وقالت:

«وماذا ستفعلين هناك يا ابنتي؟ وحدهنّ سيتقدّمن أجمل الفتيات وأغناهن. اطردي هذه الفكرة السخيفة من رأسك! أعرف تماماً أنكِ تتألمين، ولكن لا تحوّلي الألم إلى جنون!».

أجابتها الفتاة:

«يا أمي العزيزة، أنا لا أتألّم، وما أزال أقلّ جنوناً؛ أنا أعرف تماماً أني لن أُختار، ولكنها فرصتي في أن أجد نفسي لبضع لحظات إلى جانب الأمير، فهذا يسعدني ـ حتى لو أني أعرف أن هذا ليس قدري».

في المساء، عندما وصلت الفتاة، كانت أجمل الفتيات قد وصلن إلى القصر، وهن يرتدين أجمل الملابس وأروع الحلي، وهن مستعدّات للتنافس بشتى الوسائل من أجل الفرصة التي سنحت لهن.

محاطاً بحاشيته، أعلن الأمير بدء المنافسة وقال:

«سوف أعطي كل واحدة منكن بذرةً، ومن منكنّ تأتيني بعد ستة أشهر حاملةً أجمل زهرة، ستكون إمبراطورة الصين المقبلة».

حملت الفتاة بذرتها وزرعتها في أصيص من الفخار، وبما أنها لم تكن ماهرةً جداً في فن الزراعة، اعتنت بالتربة بكثيرٍ من الأناة والنعومة ـ لأنها كانت تعتقد أن الأزهار إذا كبرت بقدر حبها للأمير، فلا يجب أن تقلق من النتيجة.

مرّت ثلاثة أشهر، ولم ينمُ شيءٌ. جرّبت الفتاة شتّى الوسائل، وسألت المزارعين والفلاحين فعلّموها طرقاً للزراعة مختلفة جداً، ولكن لم تحصل على أية نتيجة. يوماً بعد يوم أخذ حلمها يتلاشى، رغم أن حبّها ظلّ متأجّجاً.

مضت الأشهر الستة، ولم يظهر شيءٌ في أصيصها. ورغم أنها كانت تعلم أنها لا تملك شيئاً تقدّمه للأمير، فقد كانت واعيةً تماماً لجهودها المبذولة ولإخلاصها طوال هذه المدة، وأعلنت لأمها أنها ستتقدّم إلى البلاط في الموعد والساعة المحدّدين. كانت تعلم في قرارة نفسها أن هذه هي فرصتها الأخيرة لرؤية حبيبها، وهي لا تنوي أن تفوّتها من أجل أي شيء في العالم.

حلّ يوم الجلسة الجديدة، وتقدّمت الفتاة مع أصيصها الخالي من أية نبتة، ورأت أن الأخريات جميعاً حصلن على نتائج جيدة؛

وكانت أزهارهن كل واحدة أجمل من الأخرى، وهي من جميع الأشكال والألوان.

أخيراً أتت اللحظة المنتظرة: دخل الأمير ونظر إلى كلٍ من المتنافسات بكثيرٍ من الاهتمام والانتباه. وبعد أن مرّ أمام الجميع، أعلن قراره، وأشار إلى ابنة خادمته على أنها الإمبراطورة الجديدة.

احتجّت الفتيات جميعاً قائلات إنه اختار تلك التي لم تزرع شيئاً.

عند ذلك فسّر الأمير سبب هذا التحدّي قائلاً:

«هي وحدها التي زرعت الزهرة التي تجعلها جديرة بأن تصبح إمبراطورة: زهرة الشرف. فكل البذور التي أعطيتكنّ إياها كانت عقيمة، ولا يمكنها أن تنمو بأية طريقة».

إلى أعظم كاتب برازيلي

طبعتُ بمواردي الخاصة كتاباً عنوانه *أرشيف الجحيم* (وأنا فخور به كثيراً، وإذا لم يكن اليوم في المكتبات، فذلك فقط لأني لم أجروْ على مراجعته مراجعةً كاملة). نحن نعرف جميعاً مدى صعوبة نشر كتاب، ولكن هناك ما هو أصعب من ذلك: العمل على وضعه في المكتبات. كل أسبوع كانت زوجتي تزور المكتبات في ناحيةٍ من المدينة، وأنا أفعل الأمر ذاته في ناحية أخرى. هكذا كانت تجتاز جادة كوباكابانا متأبّطةً نسخاً من كتابي، وهذا جورج أمادو وزيليا غاتي كانا في الطرف الآخر من الشارع! دون كثير من التفكير كانت تذهب إليهما وتقول لهما إن زوجها كاتب. وبما أن هذين الكاتبين كانا يسمعان الكلام نفسه كل يوم تقريباً عاملاها بلطفٍ ودعواها إلى تناول القهوة وطلبا منها نسخاً، وتمنّيا أن يسير عملي الأدبي على ما يرام.

قلتُ لها عندما عادت إلى البيت:

ـ هل أنتِ مجنونة؟ ألا تعرفين أنه أعظم كاتب برازيلي؟

ـ تماماً. والشخص الذي وصل إلى ما وصل إليه لا بدّ أن يكون قلبه نقياً.

كان كلام كريستينا هو الصواب بعينه: القلب النقي. وجورج، الكاتب البرازيلي الأكثر شهرةً في الخارج كان (وما يزال) المرجع الأكبر في أدبنا.

ولكن ذات يوم، دخلت رواية *الخيميائي* التي كتبها كاتب برازيلي آخر في قائمة أفضل المبيعات في فرنسا، وتربّعت في المرتبة الأولى خلال عدة أسابيع.

بعد عدة أيام تلقّيتُ عبر البريد قصاصةً تحوي القائمة مرفقةً برسالة مؤثّرة يقدّم لي فيها مجاملاته. لم يعرف قلب جورج أمادو النقي أيةَ مشاعر من الغيرة.

أخذ بعض الصحافيين ـ البرازيليين أو الأجانب ـ يحرّضونه بطرح أسئلة خبيثة. ولكن جورج لم ينسَق في أية لحظة إلى سهولةِ نقدٍ هدّام، بل صار مدافعاً عني في لحظة صعبة بالنسبة إليّ لأن معظم التعليقات التي تناولت عملي كانت قاسيةً جداً.

أخيراً حصلتُ على أول جائزة أدبية لي في الخارج، وبالتحديد في فرنسا. والذي حدث أني كنتُ في يوم منح الجائزة في لوس أنجلوس بسبب ارتباطات مأخوذة سابقاً. شعرت ناشرتي آن كاريير باليأس. تحدّثت مع الناشرين الأمريكان فرفضوا التخلّي عن محاضراتي المبرمَجة مسبقاً.

اقترب موعد الجائزة، وصاحبها لا يستطيع أن يأتي. فما العمل؟ دون أن تستشيرني آن، عمدت إلى الاتصال بجورج أمادو وشرحت له الموقف. مباشرةً عرض جورج أن يمثّلني في تسلّم الجائزة.

ولم يكتفِ بذلك، بل اتصل بسفير البرازيل ودعاه، وألقى كلمة جميلة حرّكت الحضور جميعاً.

الأغرب من هذا كله هو أني لم أتعرّف إلى جورج أمادو شخصياً إلا بعد سنة من تسلم الجائزة. ولكني تعلّمتُ أن أُعجب بروحه مثلما أعجبتُ بكتبه: كاتب شهير لا يحتقر المبتدئين، برازيلي يفرح لنجاح مواطنيه، رجل مستعدّ دائماً لتقديم مساعدة عندما تُطلب منه.

عن اللقاء الذي لم يحدث

أعتقد أننا نجد أنفسنا، مرةً واحدةً في الأسبوع، أمام أحد الأجانب الذين نودّ التحدّث إليهم ولكن دون أن تسعفنا الجرأة. منذ عدة أيام تلقّيتُ رسالةً حول هذا الموضوع، أرسلها لي قارئ سوف أسمّيه أنطونيو. وسوف أنقل هنا بعض المقاطع منها:

«كنتُ أتنزّه في غران فيا عندما لمحتُ امرأةً، قصيرة القامة جداً، ووجهها لونه فاتح، ترتدي ثياباً أنيقة، تطلب الصدقة من كل المارّة. ما إن دنوتُ منها حتى توسّلت مني بعض القطع النقدية لكي تشتري سندويشة. وبما أن المتسوّلين في البرازيل يرتدون دائماً ألبسة قديمة ورثّة، فقد قرّرتُ ألا أعطيها شيئاً، وتابعتُ طريقي. ولكن نظرتها تركت لديّ إحساساً غريباً.

ذهبتُ إلى الفندق، وسرعان ما انتابني شعورٌ غريب بأن أعود وأمنحها صدقةً ـ فقد كنتُ في عطلة، وقد تناولتُ غدائي للتو، وكان معي مالٌ في جيبي، ولا بدّ أنه أمرٌ مذلّ جداً بالنسبة إليها أن تبقى في الشارع، تطلب الصدقة وهي معروضةٌ لأنظار الجميع.

عدتُ إلى المكان الذي رأيت المرأةَ فيه فلم أرها هناك. مشيتُ في الشوارع المجاورة، ولم أجد أحداً. في اليوم التالي عاودتُ جولتي، لكني لم أجدها.

منذ ذلك اليوم لم أعد أستطيع النوم. عدتُ إلى فورتاليزا، تحدّثتُ مع إحدى صديقاتي، فقالت لي إن اتصالاً هاماً لم يحدث،

وأن عليّ أن أطلب عون الله: صلّيتُ، وبطريقةٍ معيّنة، سمعتُ صوتاً بعيداً يقول لي أن عليّ أن ألتقي بالمتسوّلة من جديد. صرتُ أُمضي لياليّ كلّها ساهراً، وأنا أبكي بحرقة. وقرّرتُ أن أضع حدّاً لذلك فجمعتُ المال، واشتريتُ تذكرةً جديدة وعدتُ إلى مدريد باحثاً عن المرأة.

بدأتُ بحثاً لا ينتهي، لكن الوقت كان يمضي والمال أخذ ينفد. وجب عليّ أن أذهب إلى إحدى وكالات السفر لتبديل تذكرتي ـ بعد أن قرّرتُ ألا أعود إلى الرازيل إلا بعد أن أؤدّي الصدقة التي لم أؤدّها.

وبينما كنتُ خارجاً من الوكالة تعثّرتُ بأحدهم. وجدتُ نفسي أمام شخص: المرأة التي أبحث عنها.

بحركةٍ آلية وضعتُ يدي في جيبي، أخرجتُ ما يوجد فيها وناولتُها إياه. شعرتُ بارتياح عميق، وشكرتُ الله على هذه اللقية، دون كلام في هذه الثانية من السعد.

عدتُ إلى إسبانيا عدة مرات، وأنا أعرف أني لن أراها، ولكني أدّيتُ ما كان يطلبه قلبي».

الزوجان اللذان كانا يبتسمان (لندن 1977)

كنتُ متزوّجاً من امرأة تُدعى سيسيليا ـ وفي فترةٍ كنتُ قد قرّرتُ أن أُهمل كل ما لا يدفعني إلى الحماسة ـ قرّرنا السفر لنعيش في لندن. سكنّا في الطابق الثاني، في شقة في بالاس ستريت، وعانينا كثيراً في إيجاد أصدقاء. ومع ذلك، كل مساء، كان زوجان شابان يخرجان من مقهى مجاور، ويمرّان من أمام نافذتنا، ويلوّحان لنا أن ننزل.

كنتُ قلقاً جداً من ردّ فعل جيراني؛ ولم أنزل أبداً، متظاهراً بأني لم أكن معنياً. لكن الزوجين كانا يكرران دائماً نقرهما، حتى لو لم يكن من أحد على النافذة.

ذات مساء نزلتُ، وشكوتُ من الضجيج، فغدت ضحكة الزوجين حزناً مباشرةً. اعتذرا وذهبا. أدركتُ في ذلك المساء أني، حتى لو حاولتُ أن أتّخذ أصدقاءً، فقد كنتُ قلقاً «مما كان جيراني سيقولونه». قررتُ أن أدعوهما في المرة القادمة إلى شرب كأس عندنا. بقيتُ على النافذة أسبوعاً كاملاً، في الفترة التي يمرّون فيها عادةً، ولكنهما لم يمرّا. أخذت أرتاد البوب أملاً في رؤيتهما، لكن صاحبه لم يكن يعرفهما.

وضعتُ إعلاناً صغيراً على النافذة يقول: «ناديا من جديد». وكل ما حصلتُ عليه هو أن ثلةً من السكارى أخذت تطلق أقذع ما يمكنها من الشتائم ذات مساء، وأن الجارة ـ التي قلقتُ عليها إلى هذا الحد ـ قد شكت للمالك. ولم أرهما بعد ذلك قط.

الحظ الثاني

«لطالما سحرتني قصة الكتب الغامضة». هكذا قلتُ لمونيكا، صديقتي ووكيلتي الأدبية، بينما كنا مسافرين بالسيارة إلى البرتغال. «يجب اقتناص الفرص وإلا ضاعت إلى الأبد».

السيبيلات، وهن ساحرات قادرات على كشف المستقبل، كن يعشن في روما القديمة. ذات يوم دخلت إحداهن إلى قصر الإمبراطور تيبر حاملة تسعة كتب، وأخبرته أن مستقبل الإمبراطورية موجود فيها، وطلبت عشرة مكاييل من الذهب عن هذه النصوص. رأى تيبر أن عرضها غال جداً، ولم يشترِ.

خرجت المرأة، أحرقت ثلاثة من الكتب، ثم عادت بالستة الباقية، وقالت للإمبراطور: «إنها بعشرة مكاييل من الذهب». ضحك الإمبراطور وطردها؛ فكيف تجرؤ على بيعه ستة كتب بسعر تسعة؟

أحرقت سيبيل ثلاثةً من الكتب، ثم عادت إلى الإمبراطور بالثلاثة الباقية وقالت: «إنها ما تزال بعشرة مكاييل من الذهب». أُسقط في يد الإمبراطور واشترى الكتب الثلاثة، ولم يستطع أن يقرأ إلا جزءاً من المستقبل.

بعد أن انتهيتُ من رواية القصة أدركتُ أننا وصلنا إلى سيوداد رودريغو، على الحدود بين إسبانيا والبرتغال. هنا، قبل أربع سنوات، عُرض علي كتاب ولم أشتره.

قلت: «لنتوقّف هنا. أعتقد أني إذا تذكرتُ كتباً سيبيلية فتلك علامة لتصحيح خطأ سابق».

خلال جولتي الأولى لترويج كتب في أوروبا، كنتُ قد قرّرتُ أن أتناول غدائي في هذه المدينة. وبعد ذلك ذهبتُ زيارة الكاتدرائية، والتقيتُ بكاهن فقال لي: «انظر كيف تجعل شمس الظهيرة كل شيء جميلاً في الداخل». وأعجبني تعليقه. تحدّثنا قليلاً، وصحبني إلى المذبح، والأروقة والحدائق الداخلية للبناء. وأخيراً عرض عليّ كتاباً كان قد كتبه عن الكنيسة، ولكني لم أشتره. ولدى خروجي شعرتُ بالذنب؛ فأنا كاتب، وأنا في أوروبا لبيع كتبي، فلماذا لا أشتري كتاب الكاهن من باب التضامن؟ ثم نسيتُ القصة حتى هذه اللحظة.

أوقفت السيارة، مشيتُ ومونيكا إلى الساحة التي أمام الكنيسة، فرأينا امرأةً تنظر إلى السماء. قلتُ لها:

«مرحباً، لقد أتيتُ إلى هنا لرؤية كاهن كَتَبَ كتاباً عن هذه الكنيسة». أجابت: «إن الكاهن، واسمه ستانيسلاو، قد توفّي منذ عام».

شعرتُ بحزنٍ شديد. لماذا لم أمنح الكاهن ستانيسلاو الفرح الذي أشعر به عندما أرى شخصاً يحمل كتابي؟

وتابعت المرأة: «لقد كان أحد أكثر الرجال الذين عرفتهم دماثةً. كان يتحدّر من أسرة متواضعة، ولكنه تمكّن من أن يصبح متخصّصاً في الآثار، ولقد ساعدني على أن يحصل ابني على منحة في الكوليج».

شرحتُ لها ما أفعله هنا. فقالت: «لا تلم نفسك يا بني، اذهب وزر الكاتدرائية من جديد».

فكرتُ أن ذلك إشارة، فأطعتُها. كان ثمة كاهن وحيد على كرسي الاعتراف، ينتظر المؤمنين الذين لا يأتون. توجّهتُ نحوه، فأشار إليّ أن أجثو على ركبتيّ، ولكني قاطعتُه:

«أنا لا أريد أن اعترف. بل أتيتُ لأشتري كتاباً عن هذه الكنيسة كتبه رجلٌ اسمه ستانيسلاو».

لمعت نظرة الكاهن، وخرج من حجرة الاعتراف ثم عاد بعد بضع دقائق حاملاً نسخةً من الكتاب، وقال:

«يا لفرحي وأنا أراكَ آتياً لتشتري هذا الكتاب فقط. أنا شقيق الكاهن ستانيسلاو، وأنا فخور به كثيراً! لا بد أنه في السماء، فرحٌ وهو يرى أن لكتابه أهمية!».

كان يوجد كهنة كثيرون هنا، وقد التقيتُ بشقيق ستانيسلاو تماماً. دفعتُ ثمن الكتاب، وشكرتُه، وعانقني، ولحظة كنتُ أهم بالخروج سمعتُ صوته:

«انظر كيف تجعل شمسُ الظهيرة كل شيء جميلاً في الداخل!».

كانت تلك هي الكلمات التي تلفّظ بها الكاهن ستانيسلاو قبل أربع سنوات. ثمة حظٌ ثان في الحياة دائماً.

الأسترالي والإعلان في الجريدة

أنا في مرفأ سيدني، أنظر إلى الجسر الجميل الذي يربط بين جزئي المدينة، عندما تقدّم استرالي وطلب مني أن أقرأ إعلاناً في الجريدة.

«إنها أحرف صغيرة جداً، لا أتمكّن من تبيّنها».

حاولتُ ولكني لا أحمل نظارة القراءة، فاعتذرتُ من الرجل، فقال:

«لا عليك، هل تريد أن تعرف؟ أعتقد أن الله أيضاً نظره ضعيف، ليس لأنه عجوز، بل لأنه أخذ هذا الخيار. هكذا، عندما يكون أحدهم مذنباً بذنب ما، لا يرى جيداً، وينتهي به الأمر بأن يعتذر منه. لأنه لا يريد أن يكون ظالماً».

سألتُه:

- وماذا عن الأشياء الجيدة؟

ردّ الأسترالي مازحاً وهو يبتعد:

- إن الله لا ينسى أبداً نظارتَه في البيت.

دموع الصحراء

عاد أحد أصدقائي من المغرب ومعه قصة جميلة.

وصل أحد المبشّرين إلى مرّاكش، وقرّر أن يتنزّه يومياً في الصحراء الموجودة على تخوم المدينة. وخلال زيارته الأولى رأى رجلاً نائماً، ويده تداعب الرمال، وأذنه تلاصق الأرض.

قال المبشّر لنفسه: «إنه مجنون!».

ولكن المشهد تكرّر يومياً، بعد شهر لم يعد يتحمّل هذا التصرّف الغريب فقرر أن يكلّم هذا الأجنبي. جثا بجانبه وسأله بصعوبة بالغة - فهو لا يتكلّم بعد العربية بطلاقة:

- ماذا تفعل؟

- أنا أرافق الصحراء وأواسيها على وحدتها وعلى دموعها.

- لا علم لي أن الصحراء تبكي!

- إنها تبكي يومياً، لأنها تفكّر في أن تكون مفيدةً للإنسان، وفي أن تتحوّل إلى حديقة فسيحة، يمكن أن تُزرع فيها الحبوب والأزهار، وأن تُربّى فيها الأغنام.

- إذن قل للصحراء أن تؤدّي مهمتها. كلما مررتُ من هنا فهمتُ البُعد الحقيقي للكائن البشري، لأن فضاءها المفتوح يُتيح لي أن أرى كم نحن صغار أمام الله.

«عندما أنظر إلى رمالها، أتصوّر ملايين الأشخاص الذين

وُلدوا متساوين، حتى لو لم يكن العالمُ عادلاً معهم دائماً. وجبالها تسمح لي بأن أتأمّل. وعندما أرى الشمس تشرق في الأفق، تمتلئ نفسي فرحاً، وأدنو من الخالق».

غادر المبشّر الرجل، وعاد إلى مشاغله اليومية. وكم كانت دهشته عظيمةً في اليوم التالي عندما وجده في المكان نفسه، وفي الوضع نفسه، فسأله:

«هل نقلتَ إلى الصحراء كل ما قلتُه لك؟».

أجاب الرجل بنعم برأسه.

ـ ومع ذلك، أهي ما تزال تبكي؟

ـ أنا أسمع نحيبها. والآن هي تبكي لأنها فكّرت طوال آلاف السنين بأنها لم تكن نافعة البتّة، وبأنها أضاعت هذه السنين كلها في الكفر بالله وبمصيرها.

ـ إذن قل لها إن الإنسان، حتى لو كانت حياته أقصر بكثير هو الآخر يُمضي كثيراً من عمره في التفكير في أنه غير نافع. وقلّما يجد سبباً لوجوده، ويظن أن الله لم يكن عادلاً معه. وفي النهاية عندما تأتي لحظة يبينّ له فيه حدثٌ ما لماذا وُلد، يرى أن الأوان قد فات لتغيير حياته، ويواصل تألمّه. ومثله مثل هذه الصحراء يتأسّف على الزمن الضائع.

ـ لا أعرف إن كانت الصحراء ستسمعني. إنها معتادة على الألم، ولا يمكنها أن ترى الأمور رؤيةً مغايرة.

ـ إذن سنقوم بما أقوم به دائماً عندما أرى أن الناس فقدوا الأمل. سوف نصلّي.

وركع الشخصان وصلّيا، الأول توجّه نحو مكة لأنه مسلم، أما الآخر فقد ضم يديه لأنه كاثوليكي. صلىَ كلٌّ منهما لربّه، الذي هو دائماً الرب نفسه، رغم أن الناس يصرّون على منحه أسماء مختلفة.

وعندما عاود المبشّر نزهته الصباحية في اليوم التالي، لم يكن

الرجل موجوداً. وفي المكان الذي اعتاد أن يعانق الرمال، كانت الأرض رطبة، لأن نبعاً صغيراً قد ظهر. وفي الأشهر التالية، كبر هذا النبع، وبنى سكان المدينة بئراً حوله.

أطلق البدو على هذا المكان: «بئر دموع الصحراء». ومَن يشرب من مائه، يستطع أن يحوّل سبب ألمه إلى فرح، وينتهي به الأمر بأن يجد قدَرَه الحقيقي.

روما: إيزابيللا تعود من نيبال

التقيتُ بإيزبيللا في مطعم غالباً ما نرتاده لأنه يبقى خالياً رغم أن الطعام فيه ممتاز. روت لي أنها أثناء زيارتها لنيبال، أمضت عدة أسابيع في أحد الأديرة. وذات يوم، بينما كانت تتنزّه بعد الظهر بجوارِ الدير مع أحد الكهنة، فتح هذا الحقيبة التي كان يحملها ومكث طويلاً ينظر إلى محتوياتها، ثم قال لصديقته:

«هل تعلمين أن الموز يمكنه أن يعلّمكِ معنى الوجود؟».

ثم أخرج من الحقيبة موزةً فاسدة، رماها ثم قال:

«هذه الموزة هي الوجود الماضي الذي لم نستفد منه في الوقت المناسب، والآن، فات الأوان».

ثم تناول من حقيبته موزة ما تزال خضراء، أراها إياها ثم أعادها وقال:

«وهذه هي الحياة التي لم تأتِ بعد. فيجب انتظار الوقت المناسب».

وأخيراً أخرج الموزة الناضجة، قشّرها ثم اقتسمها مع إيزابيللا وقال:

«أما هذه فإنها اللحظة الحاضرة. اعرفي كيف تلتهمينها بلا وجل ولا عقدة ذنب».

من فن السيف

منذ عدة قرون، منذ زمن الساموارايات، كُتب في اليابان نصٌّ عن الفن الروحي لاستخدام السيف: *الفهم الشجاع*، وقد عُرف أيضاً بـ *معاهدة تالان*، باسم مؤلّفها (وكان أستاذاً في المبارزة بالسيف وكاهناً في الزن في الوقت نفسه). ولقد اقتطفتُ منها بعض المقاطع سأوردها في الأسطر التالية:

الاحتفاظ بالهدوء: من يفهم معنى الحياة يعرف أن لا شيء له بداية ولا شيء له نهاية، وبالتالي فهو غير قلق. يناضل من أجل قناعاته دون أن يريد إثبات شيء لأحد، محتفظاً بالهدوء الصامت لمن لديه الجرأة في اختيار قدره.

وهذا صحيح في الحب وفي الحرب.

ترك القلب يتكلّم: من يثق بقدرته على الإغراء، وبقدرته على قول الأمور في الوقت المناسب، وفي الاستخدام الصحيح لجسده يبقى أصمّاً عن «صوت القلب». لا يمكننا سماع هذا الصوت إلا إذا كنا على انسجام تام مع العالم الذي يحيط بنا، ولا نسمعه أبداً عندما نحسَب أنفسَنا مركزَ الكون.

وهذا صحيح في الحب وفي الحرب.

تعلُّم أن يكون الإنسانُ الآخرَ: نحن نركّز على ما نظنّ أنه الموقف الأفضل بحيث أننا ننسى أمراً هاماً جداً: لكي نبلغ أهدافَنا نحن بحاجة إلى الآخرين. كذلك ليس من الضروري مراقبة العالم

فحسب، بل أن نتخيّل أنفسنا في جلد الآخرين، وأن نعرف كيف نواكب أفكارَهم.

وهذا صحيح في الحب وفي الحرب.

الالتقاء بالمعلّم الجيد: إننا نصادف دائماً على طريقنا كثيراً من الأشخاص الذي يريدون أن يعلّمونا أمراً معيناً، من باب الحب أو من باب الكبرياء. فكيف نميّز الصادق من الكاذب؟ الجواب بسيط: المعلّم الحقيقي لا يعلّم تلميذه طريقاً مثالياً، بل يعلّمه الطريق الذي يُريه عدة أبواب للدخول إلى السبيل الذي يجب أن يسلكه لكي يلاقي قَدَره. ولحظةَ يجد هذا السبيل، لا يعود المعلّم قادراً على مساعدته، لأن التحديات التي يجب أن يُزيلها وحيدة.

وهذا غير صحيح في الحب ولا وفي الحرب، ولكن إذا لم نفهم هذا المقال فلن نصل إلى أي مكان.

الهرب من التهديدات: نحن نظن في أغلب الأحيان أن الموقف المثالي يقوم على أن يهب الإنسان حياتَه لحلم. إن ذلك لخطأ جسيم. فلكي نبلغ الحلم، يجب أن نبقى على قيد الحياة، لذا فمن الضروري أن نعرف ما يهدّدنا. فكلما كانت خطواتنا متعمّدة، كلما وقعنا في الخطأ ـ لأننا لا نأخذ الآخرين في حسباننا، ولا تعاليم الحياة، ولا الهوى ولا الهدوء. وكلّما ظننا أننا نمتلك التحكّم، كلما ابتعدنا عن التحكّم في أي شيء كان. التهديد لا يُنذِر، وردّ الفعل السريع لا يمكن أن يُبرمَج كنزهة نقوم بها بعد ظهر الأحد.

إذا أردتم أن تدخلوا في انسجام مع حبّكم أو مع معركتكم، فتعلّموا إذن أن تردّوا الفعل بسرعة. تعلّموا الملاحظة، ولا تتركوا خبرتكم الحياتية المفترَضة تجعل منكم آلةً: استخدِموا هذه الخبرة لكي تصغوا دائماً إلى «صوت القلب». وحتى إذا لم تكونوا موافقين على ما يقوله هذا الصوت، احترموه واتبعوا نصائحه: فهو يعرف اللحظة الفضلى للتصرّف، ولحظة تجنّب الفعل.

وهذا أيضاً صحيح في الحب وفي الحرب.

في الجبال الزرقاء

في اليوم التالي لوصولي إلى أستراليا صحبني ناشري إلى محمية طبيعية قرب مدينة سيدني. وهناك وسط الغابات التي تغطّي المكان المعروف باسم الجبال الزرقاء، يوجد ثلاثة أشكال صخرية على شكل مسلّة.

قال لي ناشري مفسّراً: «إنها الأخوات الثلاث»، ثم روى لي الأسطورة التالية:

كان أحد السحرة يتنزّه مع أخواته الثلاث، عندما اقترب منه أشهر محاربٍ في عصره، وقال له:

«أريد أن أتزوّج من إحدى أجمل هذه الفتيات.

- إذا ما تزوّجت إحداهن، فستظن الأخريان أنهما قبيحتان. وأنا أبحث عن قبيلة يستطيع المحارب فيها أن يتزوّج من ثلاث نساء».

قال الساحر ذلك ثم ابتعد.

وخلال سنوات طاف في الأراضي الأسترالية، ولكنه لم يجد تلك القبيلة أبداً.

قالت إحدى الأخوات بعد أن شاخت وأضناها المشي المتواصل: «على الأقل كان بوسع إحدانا أن تكون سعيدة».

ردّ الساحر: «لقد أخطأتُ، ولكن فات الأوان الآن».

ثم حوّل الأخوات الثلاث إلى كتلة من حجر لكي يُفهِم من يمرّ من هناك أن سعادة شخص لا تعني أبداً تعاسة الآخر.

طعم الفائدة

روى لي عراش حجازي، ناشري الإيراني، قصةَ رجلٍ قرّر وهو يسعى إلى القداسة أن يصعد جبلاً عالياً حاملاً معه اللباس الذي عليه فقط، وأن يبقى يتأمّل على ذلك الجبل حتى نهاية حياته.

سرعان ما تبينّ له أن لباسه لا يكفي لأنه اتّسخ بسرعة. نزل الجبل وذهب إلى أقرب قرية وطلب لباساً. وبما أن الجميع كانوا على علم بأن الرجل يسعى إلى القداسة، فقد قدّموا له قميصاً وبنطالاً.

شكرهم الرجل وعاد إلى صومعته التي كان يبنيها على قمة الجبل. كان يُمضي لياليه في رفع الجدران، وفي النهار كان ينقطع إلى التأمّل، يأكل من ثمار الأشجار ويشرب من مياه نبع قريب.

وبعد شهر تبينّ له أن جرذاً أخذ يقضم الملابس البديلة التي كان ينشرها لتجفّ. وبما أنه كان يريد أن يركّز على واجبه الروحي فقد نزل من جديد إلى القرية وطلب هراً، واحتراماً من السكان لسعيه سارعوا إلى تلبية طلبه.

وبعد سبعة أيام أوشك الهر على الهلاك بسبب الجوع، فهو لا يستطيع أن يأكل من ثمار الأشجار، ولم يعد هناك من جرذ يأكله. عاد الرجل إلى القرية طالباً لبناً؛ وبما أن السكان كانوا يعرفون أن ذلك ليس من أجله هو ـ ففي نهاية المطاف كان يقاوم، ولا يريد أن يأكل شيئاً إلا مما تقدّمه له الطبيعة ـ فقد ساعدوه هذه المرة أيضاً.

سرعان ما أتى الهر على اللبن، حتى إن الرجل سارع إلى طلب بقرة. وبما أن البقرة تعطي لبناً أكثر مما يجب، أخذ يشرب منه، هو أيضاً لئلا يبدّده. وبعد بعض الوقت، إذ كان يستنشق هواء الجبل، ويأكل من ثمار الأشجار ويتأمّل ويشرب الحليب ويمارس التمارين الرياضية، صار بالغ الوسامة. رأته إحدى الفتيات وقد صعدت الجبل باحثة عن خروف لها فسقطت صريعة حبّه وأقنعته بأنه يحتاج إلى زوجةٍ لكي تهتمّ بالأمور المنزلية بينما يكون هو منقطعاً إلى تأمّلاته بسلام.

بعد ثلاث سنوات كان الرجل قد تزوّج وأنجب طفلين، وصار لديه ثلاث أبقار وبستان من الأشجار المثمرة، ويدير مكاناً للتأمّل. وكل من كانوا يريدون أن يتعرّفوا على «معبد الشباب الأبدي» الإعجازي وجب عليهم أن يسجّلوا أسماءهم في قائمة طويلة جداً للانتظار. وعندما سئل كيف بدأ ذلك أجاب:

«بعد أسبوعين من وصولي إلى هنا، لم يكن معي إلا قطعتان من الثياب، وقد بدأ جرذٌ يأكل إحداهما، و...».

ولكن لم يهتمّ أحدٌ بنهاية القصة، فقد أيقن الجميع أنه كان رجل أعمال محتال، حاول أن يخترع أسطورةً لكي يتمكّن من زيادة ثمن الإقامة في المعبد.

حفل الشاي

شاركتُ في «حفل الشاي» الشهير في اليابان. يدخل الإنسان إلى غرفة صغيرة ويُقدَّم الشاي، وهذا كل ما في الأمر. نعم، كل شيء يتم بهذه الطقسية وبهذا البروتوكول، بحيث أن هذه الممارسة اليومية غدت لحظة توحّد مع الكون.

شرح معلّم الشاي أوكاكورا كاكوزو ما يجري قائلاً:

«حفل الشاي هو عبادة الجمال والبساطة. وكل جهدك يتركّز على محاولة بلوغ الكمال عبر حركات ناقصة من الحياة اليومية. وجمالها كلّه يكمن في الاحترام الذي تتمّ به».

إذا كان لقاء بسيط لتناول الشاي يمكن أن ينقلنا إلى الله، فمن الجمال بمكان أن نتنبّه إلى عشرات الفرص السانحة الأخرى التي يقدّمها لنا نهارٌ واحد.

الغيمة والقمر

كتب برونو فيريرو: «يعلم الجميع أن حياة الغيوم مضطربة جداً، ولكنها قصيرة جداً أيضاً».

وهاكم قصة أخرى:

وُلدت غيمةٌ شابة من رحم عاصفة عاتية فوق البحر المتوسّط، ولكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتكبر هناك، فقد دفعت رياحٌ قوية الغيوم كلّها نحو أفريقيا.

ما إن وصلت إلى تلك القارة حتى تغيّر المناخ: سطعت شمسٌ حادةٌ في السماء، وتحتها كانت تمتدّ رمال الصحراء الكبرى. واصلت الرياح دفعَها نحو الغابات الجنوبية، ذلك لأن المطر لا يهطل فوق الصحراء أو يكاد.

ومع ذلك فإن ما يحدث للشباب من البشر يحدث للغيوم الفتية: فقد قرّرت غيمةٌ فتيةٌ الابتعاد عن أبويها وعن أصدقائها الأكبر سناً لكي تتعرّف إلى العالم.

سألتها الرياح: «ماذا تفعلين؟ فالصحراء هي نفسها في كل مكان. عودي إلى التشكيل ولنذهب إلى وسط أفريقيا حيث يوجد جبال وأشجار غير عادية!».

لكن الغيمة الفتية لم تستجب بسبب طبيعتها المتمرّدة. وشيئاً فشيئاً أخذت تفقد ارتفاعَها، وتمكّنت من التحليق فوق نسمة لطيفة، وسخية قرب الرمال المذهّبة. وبعد نزهة طويلة لمحت كثيباً يبتسم لها.

حفل الشاي

شاركتُ في «حفل الشاي» الشهير في اليابان. يدخل الإنسان إلى غرفة صغيرة ويُقدَّم الشاي، وهذا كل ما في الأمر. نعم، كل شيء يتم بهذه الطقسية وبهذا البروتوكول، بحيث أن هذه الممارسة اليومية غدت لحظة توحّد مع الكون.

شرح معلّم الشاي أوكاكورا كاكوزو ما يجري قائلاً:

«حفل الشاي هو عبادة الجمال والبساطة. وكل جهدك يتركّز على محاولة بلوغ الكمال عبر حركات ناقصة من الحياة اليومية. وجمالها كلّه يكمن في الاحترام الذي تتمّ به».

إذا كان لقاء بسيط لتناول الشاي يمكن أن ينقلنا إلى الله، فمن الجمال بمكان أن نتنبّه إلى عشرات الفرص السانحة الأخرى التي يقدّمها لنا نهارٌ واحد.

الغيمة والقمر

كتب برونو فيريرو: «يعلم الجميع أن حياة الغيوم مضطربة جداً، ولكنها قصيرة جداً أيضاً».

وهاكم قصة أخرى:

وُلدت غيمةٌ شابة من رحم عاصفة عاتية فوق البحر المتوسّط، ولكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتكبر هناك، فقد دفعت رياحٌ قوية الغيوم كلّها نحو أفريقيا.

ما إن وصلت إلى تلك القارة حتى تغيّر المناخ: سطعت شمسٌ حادةٌ في السماء، وتحتها كانت تمتدّ رمال الصحراء الكبرى. واصلت الرياح دفعَها نحو الغابات الجنوبية، ذلك لأن المطر لا يهطل فوق الصحراء أو يكاد.

ومع ذلك فإن ما يحدث للشباب من البشر يحدث للغيوم الفتية: فقد قرّرت غيمةٌ فتيةٌ الابتعاد عن أبويها وعن أصدقائها الأكبر سناً لكي تتعرّف إلى العالم.

سألتها الرياح: «ماذا تفعلين؟ فالصحراء هي نفسها في كل مكان. عودي إلى التشكيل ولنذهب إلى وسط أفريقيا حيث يوجد جبال وأشجار غير عادية!».

لكن الغيمة الفتية لم تستجب بسبب طبيعتها المتمرّدة. وشيئاً فشيئاً أخذت تفقد ارتفاعَها، وتمكّنت من التحليق فوق نسمة لطيفة، وسخية قرب الرمال المذهّبة. وبعد نزهة طويلة لمحت كثيباً يبتسم لها.

رأته فتياً هو الآخر، وقد تشكل حديثاً من الريح المارّة. وسرعان ما سقطت صريعة حبّ شعره المذهّب. فقالت له:

«صباح الخير! كيف الحياة في الأسفل؟

ـ أنا أنعم بصحبة الكثبان الأخرى والشمس والريح والقوافل التي تمرّ من هنا بين الفينة والأخرى. قد يكون الطقس حارّاً جداً هنا ولكنه محتَمَل. وكيف الحياة في الأعلى؟

ـ هنا أيضاً توجد الشمس والريح، ولكن الفائدة هي أني أستطيع أن أتنزّه في السماء وأن أتعرّف إلى أشياء كثيرة.

ـ الحياة قصيرة بالنسبة إليّ، فعندما تعود الرياح من الغابات أمّحي.

ـ وهل يحزنك هذا؟

ـ هذا يمنحني الانطباع بأني لا أصلح لشيء.

ـ وأنا لديّ الشعور نفسه، فما إن تمرّ رياحٌ جديدة حتى أذهب إلى الجنوب وأتحوّل إلى مطر، ولكنه قدري.

تردّد الكثيب قليلاً ثم قال:

ـ هل تعلمين أننا، هنا في الصحراء، ندعو المطر نعيماً؟

ـ لم أكن أعرف أني مهمة إلى هذه الدرجة!

ـ لقد سمعتُ أساطير روتها الكثبان القديمة، فقد قالت إننا كنا نتغطّى بالعشب والأزهار بعد المطر. ولكني لا أعرف أبداً ما هو ذلك، لأن هذه هي الصحراء، والمطر نادر هنا».

تردّدت الغيمة بدورها، ولكن سرعان ما ظهرت على محيّاها ابتسامة عريضة وقالت:

«إذا أردت، أستطيع أن أغطّيك بالمطر، لقد وصلتُ للتو، وأنا مغرمة بك، وأودّ أن أبقى هنا إلى الأبد.

ـ عندما رأيتكِ للمرة الأولى في السماء، أغرمتُ بكِ أنا الآخر. ولكن إذا حوّلتِ شعركِ الأبيض الجميل إلى مطر فستموتين.

ـ الحب لا يموت أبداً، بل يتحوّل، وأنا أريد أن أدخل الجنة».

وبدأت تداعب الكثيب بقطرات صغيرة، وهكذا بقيا معاً وقتاً طويلاً جداً، حتى ظهر قوس قزح.

وفي اليوم التالي كان الكثيب مغطى بالأزهار.

ظنّت بعض الغيوم الأخرى المتجهة نحو أفريقيا أن جزءاً من الغابة التي تسعى إليها موجود هنا، فسكبت ماءها. وبعد عشرين سنة صار الكثيب واحة، وصار المسافرون يبتردون في ظل الأشجار.

كل هذا لأن غيمةً عاشقة لم تبخل بمنح حياتها حباً في أحد الأيام.

نورما والأشياء الجميلة

في مدريد تعيش نورما، وهي برازيلية خاصة جداً. والإسبان يسمّونها: «الجدة المقدودة من الصخر»، فهي تناهز الستين من عمرها، وتعمل في عدة أماكن في الوقت نفسه، ولا تكفّ عن تنظيم ترويجات واحتفالات وأمسيات موسيقية.

ذات صباح، مع دقات الساعة الرابعة صباحاً، وبينما لم أكن أستطيع التحمّل أكثر بسبب التعب، سألتُ نورما من أين تأتي بكل هذا النشاط، فأجابت:

«لدي رزنامة سحرية. وأستطيع أن أريكَ إياها إذا أردت».

بعد ظهر اليوم التالي، ذهبتُ إلى بيتها، فتناولت تقويماً قديماً مخربشاً تماماً، وقالت:

«حسنٌ، اليوم، هو يوم اكتشاف اللقاح ضد شلل الأطفال. فلنحتفل لأن الحياة جميلة».

كانت نورما قد نسخت على كل يوم من أيام السنة شيئاً جميلاً كان قد حدث في ذلك اليوم. فالحياة لديها مبعث دائم للفرح.

21 حزيران 2003، الأردن، البحر الميت

كان ملك وملكة الأردن يجلسان إلى الطاولة المجاورة لطاولتي، وكذلك وزير الخارجية الأمريكي كولن باول وأمين عام الجامعة العربية ووزير الخارجية الإسرائيلي ورئيس الجمهورية الألماني والرئيس الأفغاني حميد كرزاي، وشخصيات أخرى معنية بالحرب وبمسيرة السلام اللتين نشهدهما اليوم. ورغم أن درجة الحرارة كانت تقارب الـ 40 درجة مئوية، فقد كان نسيم عليل يهبّ على الصحراء، وكان عازف بيانو يعزف بعض السوناتات، وكانت السماء صافية، والمشاعل المنتشرة في أرجاء الحديقة تنير المكان بأكمله. ومن الجهة الأخرى من البحر الميت كنا نستطيع أن نرى إسرائيل، وأنوار القدس الساطعة في الأفق. لقد بدا كل شيء منسجماً ومسالماً، وفجأةً تبيّن لي أن هذه اللحظة، بدلاً من أن تكون ابتعاداً عن الواقع، كانت في الواقع حلماً نحلمه جميعاً. ورغم أن تشاؤمي قد ازداد في الأشهر الأخيرة، فإذا تمكّن هؤلاء الأشخاص من التحادث فيما بينهم، لمّا يضع شيء بعد. بعد ذلك أعلنت الملكة رانيا أن مكان اللقاء هذا قد اختير لصفته الرمزية: البحر الميت هو النقطة الأخفض على سطح الأرض (نحو 401 متراً تحت مستوى سطح البحر). ومن أجل التعمّق أكثر يجب الغوص ـ ولكن ملوحة الماء ترغم الجسم على الطفو على السطح. وهكذا الأمر بالنسبة إلى مسيرة السلام في الشرق الأوسط الطويلة والمريرة: لا يمكن الانخفاض أكثر من هذه النقطة. لو أني أشعلتُ التلفاز في ذلك اليوم

لعلمت بوفاة مستوطن إسرائيلي وشاب فلسطيني. ولكني كنتُ هنا، في هذا العشاء، مع شعور غريب بأن هدوء هذه الليلة يمكنه أن يمتدّ على المنطقة كلها، وبأن الناس سيتباحثون كما يفعلون الآن؛ اليوتوبيا ممكنة، فالرجال لا يستطيعون أن يغوصوا أكثر.

إذا سنحت لك الفرصة يوماً أن تزور الشرق الأوسط، فلا تتوانَ عن زيارة الأردن (بلدَ رائع ومضياف)، وعن زيارة البحر الميت، والنظر إلى إسرائيل على الضفة الأخرى: فستفهم أن السلام ضروري وممكن.

وهذا جزء من النص الذي كتبتُه وقرأته خلال ذلك الحدث، مرفقاً بعزف مرتجَل من عازف الكمان اليهودي العبقري إيفري جيتليس:

السلام لا يعني عكس الحرب.

يمكننا أن نمتلك السلام حتى وسط أشرس المعارك، لأننا نناضل من أجل أحلامنا. وعندما يفقد أصدقاؤنا جميعاً آمالهم فإن سلام المعركة الطيبة يساعدنا على المضي قدماً.

إن أماً تستطيع أن تُطعم طفلها تملك السلام في عينيها، وحتى لو أن يديها ترتعشان لأن الدبلوماسية قد خابت، ولأن القنابل تتساقط ولأن الجنود يموتون.

إن رامي السهام الذي يفتح قوسه يمتلك السلام في روحه، حتى لو أن عضلاته كلها توتّرت بسبب الجهد الجسدي.

وبالتالي، بالنسبة لفرسان النور، فإن السلام ليس عكس الحرب ـ لأنهم يعرفون:

أ ـ التمييز بين ما هو عابر وما هو دائم. يستطيعون أن يناضلوا من أجل أحلامهم ومن أجل بقائهم، ولكنهم يحترمون الصِّلات التي تطوّرت مع الزمن، والثقافة والدين.

ب ـ الاعتراف بأن خصومهم ليسوا بالضرورة أعداءهم.

ت ـ كيف يكونون واعين بأن أفعالهم سيكون لها تأثير على خمسة أجيال قادمة، وأن أطفالهم وأحفادهم هم الذين سيستفيدون من النتائج (أو سيتألمون منها).

ث ـ تذكّر ما قاله يي ـ كينغ: إن المواظبة مفيدة. ولكن دون الخلط بين المواظبة والمقاومة ـ فالمعارك التي تدوم أكثر مما يجب تدمّر في النهاية الحماسة اللازمة لإعادة البناء.

بالنسبة لفارس النور ليس هناك من وهم: إن كل فرصة للتغيّر هي فرصة لتغيير العالم.

بالنسبة لفارس النور، ليس هناك أيضاً من تشاؤم: إنه يبحر ضد التيار إذا كان ذلك ضرورياً. وعندما يصبح عجوزاً وتعباً، يستطيع أن يقول لأحفاده إنه أتى إلى العالم لكي يفهم جاره أفضل، وليس لكي يُدين أخاه.

في مرفأ سان دييغو، كاليفورنيا

كنتُ أتحدّث مع إحدى النساء عن تقليد القمر ـ وهو نوع من مجموعة سرية نسائية تعمل على انسجام مع قوى الطبيعة.

سألتني وهي تنظر إلى الطيور التي تحطّ على درابزين رصيف المغادرة:

«هل تريد أن تلمس نورساً؟».

ـ طبعاً، لقد حاولت مراراً أن ألمس واحداً منها، ولكنه كان يطير بمجرّد أن أقترب منه.

ـ حاول أن تشعر بالحب نحوه، ثم أرسل هذا الحب من قلبك كحزمة ضوء لكي يصل إلى النورس، ثم اقترب بهدوء.

أطعتها. لم أنجح في محاولتين، ولكن في الثالثة، وكما لو أني دخلتُ في حالٍ من «الغشية التنويمية»، تمكّنتُ من لمس النورس. ثم كرّرت «الغشية التنويمية» وحصلت على النتيجة الإيجابية ذاتها.

قالت صديقتي الساحرة: «الحب يخلق جسوراً حيث تبدو مستحيلة».

وأنا أروي هنا التجربة لمن يريد أن يجرّب.

فن الانسحاب

إن فارس النور الذي يبالغ في الاتكاء على ذكائه ينتهي بأن يستخفّ بخصمه.

يجب ألا ننسى أن هناك لحظات تكون فيها القوة أفعل من نفاذ البصيرة. وعندما نكون إزاء نوع من العنف، ليس هناك من نور ولا حجة ولا ذكاء ولا سحر يمكنها أن تمنع المأساة.

لذا فإن الفارس لا يستخفّ أبداً بالقوة الغاشمة: عندما تكون ذات عدوانية لا مسوّغ لها، ينسحب من ساحة المعركة حتى يستنفد العدو قوته.

ومع ذلك من المستحسن أن يكون هذا واضحاً: فارس النور لايبدو جباناً أبداً. قد يكون الهروب وسيلة ممتازة للدفاع، ولا يمكن اللجوء إليه تحت تأثير الخوف.

في حال الشك يفضّل الفارس أن يواجه الهزيمة ومن ثم يعتني بالجراح ـ فهو يعلم أنه إذا هرب، إنما يمنح المعتدي قوةً أكثر مما يستحق.

يستطيع أن يهتم بالألم الجسدي، ولكن ضعفه الروحي سيلاحقه إلى الأبد. وأمام بعض اللحظات الصعبة والمؤلمة يواجه الفارس الموقف غير الملائم ببطولة وتصميم وشجاعة.

ولكي يبلغ فارس النور الحالة النفسية الضرورية (لأنه يبدأ صراعاً في غير صالحه ويخاطر بالتألّم كثيراً)، عليه أن يفهم

بالضبط ما يمكن أن يؤلمه. يعلّق أوكاكورا كاكوزو في كتابه حول حفل الشاي:

«إننا لا نرى الشر عند الآخرين، لأننا نعرف الشر عبر تصرّفنا. ونحن لا نسامح أبداً من يسبّبون الضرر لنا لأننا نعتقد أننا لن نُسامَح أبداً. إننا نقول الحقيقة المؤلمة لأقاربنا لأننا نريد أن نخفيها عن أنفسنا. ونحن نُبدي قوّتَنا لئلا يرى أحدٌ هشاشتنا.

«هكذا، كلما حكمتَ على أخيك، لا يغيبنّ عن وعيكَ أنك أنتَ من في المحكمة».

وهذا الوعي يسمح أحياناً بتجنّب صراع لا يجلب إلا المضرّة. ولكن في حالات معينة ليس من مفرّ إلا المعركة غير المتكافئة.

نعرف أننا سنخسر، ولكن عدوّنا، والعنف، لم يتركا لنا من خيار إلا الجبن، وهذا لايعنينا. في تلك اللحظة يجب قبول القدر، مع الاحتفاظ في الروح بنصٍ من البهاغافاد ـ جيتا العظيمة (الفصل الثاني، 16 ـ 26):

«الإنسان لا يولد، ولا يموت أبداً. إنه يحاول أن يوجد، ولا يكفّ أبداً عن الاجتهاد في ذلك، لأنه أبدي ودائم.

«تماماً مثلما يتخلّص الإنسان من ملابسه البالية ويقوم بارتداء ملابس جديدة فإن الروح تتخلّص من الجسد القديم وتلبس جسداً جديداً.

«ولكنها لا تفنى؛ ولا تستطيع السيوف أن تقطعها، ولا النار أن تحرقها، ولا الماء أن يبلّلها، ولا الرياح أن تجفّفها، أبداً. إنها فوق قدرة هذه العناصر كلّها.

«وبما أن الإنسان لا يفنى، فهو منتصر دائماً (حتى في هزائمه)، ولهذا السبب بالتحديد، عليه ألا ييتئس».

في قلب الحرب

روى لي المخرج السينمائي روي غيرا أنه كان ذات مساء في بيت وسط موزامبيق، يتحدّث مع أصدقائه. وكانت البلاد في حرب بحيث أن كل شيء كان مفقوداً، الوقود والإنارة.

ولكي يُمضوا الوقت تحدّثوا عما يحبّوا أن يأكلوا. وأعلن كل منهم عن طبقه المفضّل، ثم أتى دور روي فقال:

«أريد أن آكل تفاحة». قال هذا وهو يعرف تماماً أن من المستحيل إيجاد فواكه في ذاك التقنين.

في تلك اللحظة، سُمع صوت، ودخلت تفاحةٌ جميلة ولامعة ولذيذة تتدحرج داخل القاعة لتستقرّ أمامه!

اكتشف روي فيما بعد أن إحدى الفتيات ممن يعشن في ذاك المنزل قد خرجت لتشتري تفاحاً من السوق السوداء، وعندما كانت تصعد الدرج عائدةً، تعثّرت وسقطت، وانفتح كيس التفاح الذي كانت تحمله، وتدحرجت إحدى التفاحات إلى داخل القاعة.

مصادفة! حسنٌ، إنها كلمة ضئيلة جداً لتفسير تلك القصة.

العسكري في الغابة

بينما كنتُ أمشي طريقاً صاعداً في البيرينيه بحثاً عن مكان لأمارس رياضة رمي السهام، وقعتُ على معسكر صغير للجيش الفرنسي. نظر إليّ الجنود فتظاهرتُ بأني لم أرَ شيئاً (لدينا جميعاً تقريباً ذلك الخوف العصابي من أن نُعَدّ جواسيس...) وتابعتُ طريقي.

وجدتُ المكان مثالياً، وقمتُ بتمارين إعدادية تنفّسية، وعندها رأيتُ عربة مصفحة تقترب مني. آلياً وبدفاع غريزي أعددتُ كل الإجابات المحتملة على الأسئلة التي ستُطرَح عليّ. فلديّ الترخيص باستخدام القوس، والمكان آمن، وعلى حرّاس الغابات أن يثبتوا عكس ذلك، وليس على الجيش، إلخ.

ولكنّ عقيداً قفز من المصفّحة وسألني إن كنتُ الكاتب، ونقل إليّ بعض الأحداث الهامة في المنطقة.

ثم تغلّب على خجله البادي تقريباً، وقال إنه يكتب كتباً هو أيضاً، وأخذ يروي لي بداية عمله الغريبة.

قام هو وزوجته ببعض الهبات من أجل طفلة مجذومة من أصل هندي كانت قد أُرسلت إلى فرنسا. ذات يوم، وكانا متشوّقَين لرؤية الطفلة، ذهبا إلى الدير حيث كانت راهبات مكلّفات بالاعتناء بها. وكانت ظهيرة جميلة، وفي النهاية طلبت منه إحدى الراهبات أن يقدّم مساعدته للتربية الروحية لمجموعة الأطفال التي كانت تعيش هناك.

قال جان - بول سيتو (وهو اسم العسكري) إنه لم يكن يملك أية تجربة في دروس تعليم المسيحية، ولكنه سيتأمّل ويسأل الله مايمكنه أن يفعل.

تلك الليلة، وبعد صلواته، سمع الجواب: «بدلاً من إعطاء إجابات، حاول أن تعرف الأسئلة التي يريد الأطفال أن يطرحوها».

منذ ذلك الحين خطر ببال سيتو أن يزور عدة مدارس، وأن يجعل الأطفال يكتبون كل ما يحبّون معرفته حول الحياة. طلب أن تُطرح الأسئلة كتابةً، لئلا يخاف الأكثر خجلاً من الظهور. وجُمعت نتيجة عمله في كتاب: الطفل الذي يطرح دائماً أسئلةً (الناشر: ألتيس، باريس).

وهذه بعض الأسئلة:

إلى أين نذهب بعد الموت؟

لماذا نخاف من الغرباء؟

هل هناك وجود لسكان المريخ أو لسكان خارج الأرض؟

لماذا تحدث الحوادث، حتى لأناس يؤمنون بالله؟

لماذا نولد، مادمنا سنموت في النهاية؟

ما معنى الله؟

كم نجماً في السماء؟

من الذي اخترع الحرب والسعادة؟

هل يصغي الرب إلى أولئك الذين لا يؤمنون بالله نفسه (الكاثوليكي)؟

لماذا هناك فقراء ومرضى؟

لماذا خلق الله البعوض والذباب؟

لماذا لا يكون الملاك الحارس بجانبنا عندما نكون حزينين؟

لماذا نحب بعض الأشخاص، ونكره آخرين؟

من الذي أعطى الألوان أسماءها؟

إذا كان الله في السماء والأم فيها أيضاً لأنها ماتت، فكيف يمكنه هو أن يكون حياً؟

شعر بعض المدرّسين والأهالي بالحماسة للقيام بالشيء نفسه وهم يقرؤون هذه الأسئلة. ولهذا، بدلاً من فرض فهمنا البالغ للعالم، ينتهي بنا الأمر أن نتنكّر بعض هذه الأسئلة في طفولتنا ـ التي لم نجب عليها في الواقع أبداً.

في مدينة ألمانية

قال روبير: «انظر إلى هذا الصرح».

كانت شمس نهاية الخريف تتأهّب للغروب، ونحن في مدينة ألمانية.

«لا أرى شيئاً. كل ما أراه ساحة فارغة.

فقال روبير مصرّاً:

- الصرح تحت قدميك».

نظرتُ إلى الأرض، وكانت مبلّطة ببلاطات متساوية، دون أي اختلاف خاص في الألوان. لم أشأ أن أخيّب أمل صديقي، ولكني لم أرَ شيئاً آخر على الأرض.

ففسّر روبير قائلاً:

«إنه يُدعى صرح غير مرئي. اسم المكان الذي مات فيه اليهود محفور في أسفل كل حجر من هذه الحجارة. لقد أبدع فنانون مجهولون خلال الحرب العالمية الثانية وأضافوا بلاطات بحيث أن أماكن إبادة قد أُبلغ عنها.

«حتى لو لم يرى أحد هذه الشهادة، فهي موجودة هنا، وفيما بعد سوف ينتهي الأمر باكتشاف الحقيقة حول الماضي».

لقاء في غاليري دنتسو

قدم إلى فندقي في طوكيو ثلاثة رجال يرتدون ملابس فاخرة، وقال أحدهم:

«أمس ألقيتَ محاضرةً في غاليري دنتسو، ودخلتُ بالمصادفة، وكنتَ تشرح في تلك اللحظة أن أي لقاء لا يتمّ عرضاً. ربما كانت هذه هي اللحظة المناسبة لنقدّم أنفسنا».

لم أسأل كيف اهتدوا إلى الفندق الذي أنزل فيه، ولم أطرح سؤالاً؛ إذا كان هؤلاء الرجال قادرين على التغلّب على هذه المصاعب، فإنهم يستحقّون الاحترام. أعطانا أحدهم بعض الكتب مكتوبة بالخط الياباني. شعر مترجمي بالإثارة، فقد كان هذا السيد هو كازوهيتو، ابن شاعر ياباني عظيم لم أكن قد سمعتُ به.

وسرّ تزامن اللقاءات بالضبط هو الذي سمح لي أن أتعرّف قليلاً وأن أقرأ وأشارك مع قراءات هذه الصفحات عمل ميستو آيدا (1924 ـ 1991)، الخطّاط والشاعر الذي يُحيلنا في نصوصه إلى أهمية البراءة:

لأنها عاشت حياتها بقوة

فإن العشب اليابس يجذب انتباهَ المارة.

والأزهار لا تقوم إلا بالإزهرار،

بأفضل ما تستطيع.

الزنبق الأبيض في الوادي، الذي لا يراه أحد،
غير مدين بالتفسير لأحد،
هو يعيش من أجل الجمال فقط.
ولكن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا مع «الفقط».

*

إذا أرادت البندورة أن تصبح بطّيخاً
فستكون مضحكة.
وأنا أستغرب
أن ينشغل الناس جميعاً
بأن يريدوا أن يكونوا غير ما هم؛
فأي متعة لديهم ليصبحوا مضحكة؟

*

أنت لا تحتاج لأن تتظاهر بأنك قوي
ولستَ بحاجة لكي تثبت أن كل شيء على ما يرام،
ولستَ بحاجة لتشغل بالك بما يفكّر به الآخرون.
ابكِ إذا لزم الأمر
فمن المستحسن البكاء حتى آخر دمعة
(عندئذ فقط تستطيع أن تبتسم من جديد).

*

أحياناً أشاهد على التلفاز احتفالات تدشين الأنفاق والجسور، وهذا ما يحدث بصورة طبيعية: تصطفّ شخصيات ورجال سياسة محليّون، ويقف في الوسط الوزير أو حاكم المقاطعة. ويُقصّ الشريط، وعندما يعود مديرو الأعمال إلى مكاتبهم يجدون رسائل مختلفة تعبّر عن الامتنان والإعجاب.

أما أولئك الذي اشتغلوا وعرقوا من أجل هذه النتيجة، من حملوا المعول والرفش، وأفنوا أنفسهم لتنفيذ المهمة صيفاً أو بقوا حتى ظهور النجوم في الشتاء لكي ينجزوا العمل، فلا أحد يراهم أبداً؛ يبدو أن الحصة الكبرى تعود إلى أولئك الذي لم يبذلوا العرق من جبينهم.

أريد أن أكون دائماً قادراً على رؤية الوجوه التي لا تُرى، وجوه من لا يسعون إلى الشهرة أو إلى المجد، ومن يؤدّون بصمت الدورَ الذي حدّدته لهم الحياة.

أريد أن أكون قادراً على هذا لأن الأمور الأكثر أهمية في الوجود، تلك التي تبنينا، لا تُبدي وجهها أبداً.

أفكار حول 11 أيلول 2001

اليوم فقط، وبعد عدة سنوات على الحادث، أحاول أن أكتب حول هذا الموضوع. لقد تحاشيتُ أن أتطرّق إليه مباشرة، لكي يتمكّن كل شخص من التفكير بنتائج الاعتداءات على طريقته الخاصة.

من الصعب جداً أن نقبل أن مأساةً يمكنها، بطريقة معينة، أن تأتي بنتائج إيجابية. فعندما رأينا، مرعوبين، ما كان يشبه فيلماً من أفلام الخيال العلمي ـ البرجين اللذين انهارا وأوديا بانهيارهما بحياة آلاف الأشخاص ـ تولّدت لدينا مشاعر مباشرة: الأول، شعور بالعجز والرعب تجاه ما يجري؛ والثاني: اليقين أن العالم لن يعود أبداً كما كان.

العالم لن يعود أبداً كما كان، هذا صحيح، ولكن بعد وقت التفكير هذا كلّه، هل يبقى الإحساس بأن كل هؤلاء الناس قد قضوا عبثاً؟ أو هل بالإمكان إيجاد شيءٍ ما تحت أنقاض مركز التجارة العالمي، وراء الموت والغبار والفولاذ الملتوي؟ أعتقد أن كل كائن بشري سيعرف، في لحظة معينة، مأساةً في حياته ـ تهدّم مدينة، أو موت طفل، أو حكم بلا دليل، أو مرض يأتي دون سابق إنذار ويسبّب العجز الدائم. الحياة خطر دائم، ومن ينسى ذلك لن يكون مؤهّلاً لتحدي القدر. وعندما نكون أمام الألم الأكيد الذي يعترض طريقنا نكون مضطرّين للبحث عن معنى لما يجري، وأن نتغلّب على الخوف من بدء عملية إعادة البناء.

الأمر الأول الذي علينا أن نقوم به عندما نكون في مواجهة الألم وغياب الأمان هو أن نقبلهما كما هما. لا يمكننا أن نعالجهما كشيء لا يعنينا، ولا أن نحوّلهما إلى عقاب يُرضي شعورنا الأبدي بالذنب. لقد وُجد أناس مثلنا بين أنقاض مركز التجارة العالمي، أناس كانوا يشعرون بالأمان أو بالتعاسة، مكتفون أو مناضلون من أجل تحسين أوضاعهم، مع أسرة تنتظرهم في البيت، أو يائسون من الوحدة في المدينة الكبيرة. كانوا أمريكيين وبريطانيين وألماناً وبرازيليين ويابانيين، آتين من أصقاع العالم كافة، يوحدّهم مصيرهم المشترك ـ والغامض ـ في أن يوجدوا جميعاً عند الساعة التاسعة صباحاً في المكان نفسه، الذي كان جميلاً بالنسبة لبعضهم، وظالماً بالنسبة لآخرين. عندما انهار البرجان لم يكن هؤلاء هم من ماتوا فقط، بل نحن متنا بعض الشيء، والعالم بأسره نقص.

عندما نكون أمام فقدان خطير، سواء أكان مادياً أو روحياً أو نفسياً، يجب علينا أن نتذكّر درسَ الحكماء العظيم: الصبر، واليقين بأن كل شيء عابر في هذه الحياة. وانطلاقاً من هذا علينا أن نعيد النظر في قيمنا. بما أن العالم لن يعود مكاناً آمناً طوال سنوات، فلماذا لا نستخدم هذا التحوّل المفاجئ ونغامر في أشياء لطالما رغبنا القيام بها دون أن نمتلك الشجاعة لذلك؟ كم من الأشخاص كانوا موجودين ذلك الصباح، صباح 11 أيلول، في مركز التجارة العالمي بلا إرادة منهم، يحاولون متابعة عمل ليس لهم، ويؤدّون عملاً لا يحبّونه، ببساطة لأنه كان مكاناً آمناً، كان بوسعهم أن يضعوا فيه ما يكفي من المال من أجل تقاعدهم ومن أجل شيخوختهم؟

في هذا تغيّر العالم، وأولئك الذين دُفنوا تحت أنقاض البنائين يجعلوننا الآن نفكّر بقيمنا الخاصة. عندما سقط البرجان أطاحا بأحلام وآمالٍ، ولكنهما فتحا أيضاً فضاء في الأفق وأجبرانا على التفكير بمعنى حيواتنا. وهنا بالضبط، موقفنا يختلف تماماً.

تقول القصة القديمة أنه، بعد قليل من قصف مدينة درسدن، كان رجل يعبر أرضاً مليئة بالأنقاض فرأى ثلاثة عمال يعملون، فسألهم:

ـ ماذا تفعلون؟

التفت إليه العامل الأول وقال:

ـ ألا ترى؟ أنا أزيل الحجارة!

وأجابه الثاني:

ـ ألا ترى؟ أنا أقبض أجراً!

وقال الثالث:

ـ ألا ترى؟ أنا أعيد بناء كاتدرائية!

رغم أن الثلاثة كانوا يقومون بالعمل نفسه، فقد كان واحد منهم فقط يعرف حقاً معنى عملهٍ. لنأمل في العالم الذي سيلي 11 أيلول 2001، أن يتمكّن كلٌّ منا من النهوض من جديد من أنقاضه الانفعالية وأن يبني الكاتدرائية التي لطالما حلمنا بها دون أن نجرؤ أبداً على خلقها.

آيات الله

روت لي إيزابيليتا القصة التالية:

كان أحد العرب الأميين يدعو ربّه بحماسة كلّ ليلة بأن يقرّر رئيس قافلة كبيرة مناداته.

«لماذا تدعو بكل هذا الإيمان؟ وكيف تعرف أن الله موجود وأنت لا تعرف القراءة؟

ـ بلى يا مولاي، أنا أقرأ كل ما كتبه ربّ السموات.

ـ وكيف ذلك؟

ـ حين تتلقّى رسالة من غائب فكيف تعرف من كتبها؟

ـ من خطّه.

ـ وعندما تتلقّى حلية كيف تعرف من صنعها؟

ـ من علامة الجواهري.

ـ وعندما تسمع وقع خطوات حيوانات حول الخيمة، فكيف تعرف إذا كان خروفاً أو حصاناً أو ثوراً؟

أجابه الرئيس وهو مفاجأ بهذه الأسئلة:

ـ من آثارها».

هنا دعاه المؤمن العجوز إلى أن يخرج من الخيمة وأشار إلى السماء وقال:

«مولاي، هذه الأشياء المكتوبة في الأعلى، وهذه الصحراء في الأسفل، لم يكن بوسعها أن تُرسم أو تُكتب بأيدي بشر».

وحيد على الطريق

الحياة كسباق دراجات كبير، هدفه إنجاز الأسطورة الشخصية، وهو مهمتنا على هذه الأرض، كما يقول قدماء الخيميائيين.

في بداية السباق نكون معاً، نشترك في الرفقة والحماسة. ولكن ما إن يمضي السباق قُدماً حتى يحلّ التحدي محلَّ الفرح الأول: التعب والرتابة والشكوك في قدراتنا. ونتأكّد من أن بعض أصدقائنا قد غادرونا من صميم قلوبهم؛ ما يزالون يتسابقون ولكن فقط لأنهم لا يستطيعون أن يقفوا وسط الطريق. يشكّلون مجموعة ما تني تكبر، يسيرون قرب سيارة النجدة ـ التي تسمى أيضاً الروتين ـ ويتحدّثون فيما بينهم، ويؤدّون واجباتهم، ولكنهم ينسون جماليات الطريق وتحدّياته.

انتهى بنا الأمر أن أخذنا مسافاتنا معهم؛ فكنا مضطرّين لمواجهة الوحدة والمفاجآت في المنعطفات المجهولة، ومشكلات الدرّاجة. وفي لحظة معينة، وبعد عدة سقطات دون أن يكون هناك أي شخص يساعدنا، تساءلنا إذا كان هناك من داعٍ لهذه الجهود كلّها.

نعم: يكفي عدم الاستسلام. يقول الأب ألان جونز إنه يلزمنا أربع قوى خفيّة لكي تتغلّب روحنا على هذه العوائق: الحب والموت والقوة والزمن.

الحب ضروريّ لأن الله يحبّنا.

ووعي الموت ضروريّ من أجل فهم الحياة جيداً.

والنضال ضروري من أجل التقدّم، ولكن دون أن ندع أنفسنا نتوهّم من قبل القوة الآتية من التطوّر، لأننا نعرف أنها لا تساوي شيئاً.

وأخيراً يجب أن نقبل أن روحنا، رغم كونها أبدية فهي في هذه اللحظة حبيسة شبكة الزمن، بفرصه وحدوده؛ وهكذا؛ ففي سباقنا الوحيد على الدراجات يجب أن نتصرّف وكأننا نملك الوقت، وأن نبذل ما بوسعنا لتقييم كل ثانية، وأن نستريح عندما تكون الاستراحة ضرورية، ولكن يجب علينا أن نواصل طريقنا دائماً نحو النور الإلهي دون أن ندع لحظات القلق تؤثّر علينا.

لا يمكن لهذه القوى الأربع أن تعالَج وكأنها مشكلات للحل، لأنها خارج كل سيطرة. يجب أن نقبلها وأن ندعها تعلّمنا ما يجب علينا أن نتعلّمه.

نحن نعيش في كون هو في الآن نفسه أعظم من أن نحيط به، وصغير بحيث نضعه في قلبنا. في روح الإنسان روح العالم والصمت والحكمة. وبينما نحن نسير نحو هدفنا من المهم جداً بالنسبة إلينا أن نتساءل: «ما هو الجميل في هذا النهار؟» الشمس يمكنها أن تبرق، ولكن إذا هطل المطر فلنتذكّر أن هذا يعني أن الغيوم السوداء ستتبدّد سريعاً. الغيوم تتبدّد لكن الشمس باقية، ولا تمضي أبداً ـ ويجب أن نتذكّر ذلك في لحظات الوحدة.

وأخيراً عندما تغدو الأمور قاسية جداً يجب ألا ننسى أن الجميع مرّوا من هنا، بغضّ النظر عن جنسهم أو لونهم أو وضعهم الاجتماعي أو معتقداتهم أو ثقافتهم. ويلخّص دعاءٌ جميل للمتصوّف المصري ذي النون (المتوفّى عام 861 م) جيداً الموقفَ الإيجابي الضروري في هذه اللحظات:

«يا إلهي، عندما أُعير سمعي لأصوات الحيوانات، وإلى حفيف

أوراق الأشجار، وإلى خرير المياه وإلى زقزقة العصافير وإلى عصف الرياح وهزيم الرعد، أرى فيها دليلاً على وحدتك، أشعر أنك القوة العليا العلم الكلي والحكمة الكاملة والعدل الكلّي.

«اللهم، أنا أعرفك في المحن التي أجتازها، فاجعل يا إلهي، رضاكَ رضاي. واجعلني فرحكَ، فرح أبٍ يشعر به تجاه ابنه. وأن أتذكّركَ بسكينةٍ وتصميم، حتى عندما يصعب أن أقول إني أحبك».

ما هو مضحك عند الإنسان

سأل رجلٌ صديقي جيم كوهين:

«أودّ أن أعرف ما هو المضحك عند الكائنات البشرية».

فقال كوهين:

«إنهم يفكّرون دائماً بعكس ما لديهم. وهم مستعجلون للكبر، ثم يتحسّرون على طفولتهم الضائعة. يفقدون صحّتهم لكي يملكوا المال، ثم يفقدون مالهم من أجل امتلاك الصحة.

«يفكّرون بكثير من القلق في المستقبل بحيث أنهم ينسون الحاضر، وهكذا فإنهم لا يعيشون حاضرهم ولا مستقبلهم.

«يعيشون كما لو أنهم لن يموتوا أبداً، ويموتون كما لو أنهم لم يعيشوا أبداً».

العودة إلى العالم بعد الموت

لطالما تساءلتُ عما يحدث عندما ننتشر من تلقاء أنفسنا في الأرض. قصصتُ شعري في طوكيو، وقلّمتُ أظافري في النرويج، ورأيتُ دمي يسيل وأنا أتسلّق جبلاً في فرنسا. في كتابي الأول *أرشيف الجحيم* تأمّلتُ قليلاً في هذا الموضوع، كما لو أنه من الضرورة بمكان أن نبذر جسدَنا في أنحاء متفرّقة من العالم لكي يبدو لنا شيءٌ ما مألوفاً في حياتنا المقبلة. قرأتُ حديثاً في الصحيفة الفرنسية *الفيغارو* مقالاً كتبه غي باريه حول حدث واقعي وقع في حزيران من عام 2001، عندما أوصل أحدٌ معين هذه الفكرة إلى خواتيمها.

المقصودة هي الأمريكية فيرا أندرسن التي أمضت حياتها كلّها في مدينة مدفورد في ولاية أوريغون. وبعد أن كبرت في السن وقعت ضحية حادث قلبي ـ وعائي، زاد من خطورته انتفاخ رئوي أرغمها على تمضية سنوات كاملة في غرفتها، تضع باستمرار بالوناً من الأوكسجين. الحدث بحد ذاته مأساة، ولكن في حالة فيرا كان الوضع خطراً إلى درجة أنها حلمت باجتياز العالم واحتفظت بمدّخراتها لكي تقوم بذلك بعد أن تُحال إلى التقاعد.

حصلت فيرا على منحة الانتقال إلى كولورادو لكي تُمضي مابقي من أيامها برفقة ابنها روس. هناك، وقبل أن تقوم برحلتها الأخيرة ـ التي لم تعد منها، اتّخذت القرار. بما أنها لن تستطيع حتى أن تتعرّف إلى بلادها، فسوف تسافر بعد الموت.

ذهب روس إلى مسجّل العقود في المدينة وسجّل وصية أمّه: بعد وفاتها تتمنّى أن تُحرق جثّتها. حتى الآن، لا أكثر. ولكن الوصية تتابع: يجب أن يوضع رمادها في مئتين وواحد وأربعين كيس صغير، ستُرسل إلى رؤساء مصالح البريد في الولايات الأمريكية الخمسين، وإلى كلّ من بلدان العالم المئة وواحد وتسعين ـ بحيث أن جزءاً من جسدها سيزور أخيراً الأماكن التي لطالما حلمت بزيارتها.

وما إن توفّيت فيرا حتى نفّذ روس رغباتها الأخيرة بالإخلاص المنتظر من ابن نحو أمه. ومع كل إرسالية كان يرسل رسالة صغيرة يطلب فيها أن تُمنح أمه دفناً لائقاً.

كل من تلقّى رماد فيرا أندرسن تعامل باحترام مع طلب روس. ونشأت سلسلة من التضامن الصامت في أربع زوايا العالم، وقام مؤيدون مجهولون بمراسم وطقوس بالغة الاختلاف، آخذين دائماً بالحسبان المكان الذي كانت المرحومة ستتعرّف إليه.

وهكذا فقد نُثر رماد فيرا في بحيرة تيتيكاكا من الجانب البوليفي، بحسب التقاليد القديمة لهنود الأيمارا، وفي النهر أمام القصر الملكي في ستوكهولم، وعلى ضفة شاو فرايا في تايلاند، وفي معبد شنتوي في اليابان، وفي ثلوج المحيط المتجمد الجنوبي، وفي الصحراء الكبرى. وصلّت الراهبات المحسنات في أحد دور الأيتام في أمريكا الجنوبية (لم يذكر المقال في أي بلد) طوال أسبوع قبل أن تنثر الرماد في الحديقة ـ وقرّرن فيما بعد أن تُعدّ فيرا أندرسن ملاكاً حارساً للمكان.

تلقّى روس أندرسن صوراً من قارّات العالم الخمس تبيّن رجالاً ونساء من الأعراق والثقافات كافة وهم يحترمون رغبات أمّه. وعندما نرى العالم مقسّما كما هو اليوم، وحيث نعتقد أن لا أحد يهتمّ بالآخر، فإن رحلة فيرا أندرسن تملؤنا أملاً، لأننا نعلم أن الاحترام ما يزال موجوداً، وكذلك الحب والكرم في نفس أخينا الإنسان مهما كان بعيداً.

من ما يزال يريد هذه الورقة ؟

يروي غسان سعيد عامر القصة التالية: بدأ أحد المحاضرين حلقة بحثه حاملاً ورقة نقدية من فئة العشرين دولاراً، وسأل:

«من منكم يريد ورقة العشرين دولاراً هذه؟».

ارتفعت عدة أيادٍ، ولكن المحاضر أضاف:

«ولكن قبل أن أعطيها يجب أن أقوم بشيء معين».

سحقها سحقاً كاملاً، ثم سأل من جديد:

«من ما يزال يريد هذه الورقة؟».

وارتفعت الأيادي من جديد.

«وإذا فعلتُ هذا؟».

دعك الورقة ورماها باتجاه الجدار فسقطت أرضاً، وسحقها بقدمه، ثم أراها للحضور ـ وقد صارت قذرةً جداً وتالفة ـ كرّر سؤاله فارتفعت الأيادي ثالثاً، فعلّق قائلاً:

«لا تنسوا أبداً هذا المشهد. مهما فعلتُ بهذه الورقة النقدية، فإنها تبقى ورقة من فئة العشرين دولاراً. غالباً ما نُسحق في الحياة، وترفسنا الأقدام، وتُساء معاملتنا؛ ومع ذلك، ما نزال نحتفظ بقيمتنا».

الجوهرتان

من الكاهن السيسترسياني ماركوس غراسيا إلى بورغوس في إسبانيا:

«يحدث أحياناً أن يُحرَم شخصٌ معين من نعمةٍ محدَّدة لكي يفهم هذا الشخص أنه أكثر من منافع تستجيب لمطالب. إنه يعرف إلى أية درجة يستطيع أن يشعر بروحه، وهو لا يتجاوز هذه الدرجة أبداً.

في تلك اللحظات يجب ألا نقول أبداً: «الله تخلّى عني». فهو لا يفعل ذلك أبداً؛ فنحن الذين نستطيع أن نتخلّى عنه أحياناً. إذا ما فرض علينا الرب امتحاناً كبيراً، فإنه يمنحنا دائماً النِّعَم الكافية ـ بل أقول الأكثر من كافية، لكي نتغلّب عليه».

حول هذا الموضوع أرسلت إليّ القارئة كاميلا غالفاو بيفا قصة هامة:

كان أحد الحاخامات المؤمنين جداً يعيش مع أسرته ـ زوجة رائعة وولدان عزيزان. وذات يوم اضطرّ للغياب بضعة أيام من أجل عمله. وخلال غيابه تُوفّي الولدان في حادث سيارة أليم.

وحدها كانت الأم تتألم، ولكنها كانت امرأةً قوية، تستعين على مصيبتها بإيمانها وبثقتها بالله، فتحمّلت الصدمة بعزة نفس وشجاعة. ومع ذلك، كيف كان يجب عليها أن تعلن الخبر لزوجها؟ رغم أنه كان رجل دين مؤمن، فقد نُقل من قبل إلى المستشفى بسبب

مشكلات قلبية، وكانت زوجته تخشى أن تتسبّب معرفة المأساة بموته.

لم يبقَ لها إلا أن تدعو الله ليلهمها أفضل طريقة للتصرّف. وعشية عودة زوجها صلّت كثيراً فتلقّت نعمة الجواب.

في اليوم التالي عاد الحاخام إلى البيت، وعانق زوجته طويلاً، وسأل عن ولديه. قالت له المرأة ألا يشغل باله، وأن يستحمّ ويستريح.

وبعد عدة ساعات جلس الاثنان لتناول الغداء. سألته عن تفاصيل رحلته فقصّ عليها كل ما مرّ به، وتحدّث عن رحمة الله، ولكنه ما لبث أن سأل عن الولدين ثانيةً.

أجابت الزوجة زوجها ببعض الارتباك:

«دع الولدين، فسوف نهتمّ بهما فيما بعد. أريد أولاً أن تساعدني على حل مشكلة عويصة».

سأل الزوج بقلق:

«ماذا جرى؟ لقد وجدتُكِ منهارة! قولي لي كل ما بقلبك، وأنا واثق من أننا سنحلّ الأمور بعون الله مهما كانت.

- في أثناء غيابك، زارني أحد أصدقائنا وترك عندي جوهرتين لا تُقدَّران بثمن، حليتين رائعتين! لم أرَ في حياتي أجمل منهما! وقد أتى لأخذهما، ولستُ مستعدة لإعادتهما إليه، لأني متعلّقة بهما أشد التعلّق، فما رأيك؟

- هيا يا عزيزتي، أنا لا أفهم تصرّفك! لم تكوني سخيفةً قطّ.

- ذلك لأني لم أرَ في حياتي أجمل من هاتين الجوهرتين! وأنا لا أستطيع تقبّل فكرة فقدانهما إلى الأبد!».

قال الحاخام بتصميم:

«لا أحد يفقد ما لا يملكه. والاحتفاظ بهما يعادل سرقتهما!

سوف نردّهما، وسوف أساعدكِ على التغلّب على فقدهما. وسوف نفعل ذلك معاً هذا اليوم بالذات.

ـ حسنٌ يا عزيزي، فلتنفذ رغبتك، والكنز سيعاد. في الواقع، لقد فعلتُ ذلك. فقد كانت الجوهرتان النفيستان ولدينا الغاليين. لقد عهد بهما الله إلينا، وبينما كنتَ مسافراً، أتى وأخذهما، وذهبا...».

فهم الحاخام مباشرةً، فعانق زوجته بقوة، وبكيا معاً ـ ولكنه كان قد فهم الرسالة، ومنذ ذلك اليوم، وهما يناضلان من أجل التغلّب على مرارة الفقد بقلب واحد.

الكذب على النفس

يقوم جزءٌ من الطبيعة البشرية على الحكم على الآخرين بقسوة، وعندما تهبّ الرياح ضد رغباتنا فإننا نجد دائماً عذراً للإساءة التي قمنا بها. والقصة التالية توضح ما أذهب إليه:

أُرسل رسولٌ في مهمة مستعجلة إلى مدينة بعيدة. أسرج جواده وانطلق مسرعاً. وبعد أن قطعا عدة خانات يمكن أن تُطعم فيها الدواب فكّر الحصان:

«إننا لم نعد نقف للأكل في الإسطبلات، وهذا يعني أني لم أعد أُعامَل كحصان، بل ككائن بشري، ككل البشر، وأعتقد أننا سنأكل في المدينة الكبيرة الآتية».

ولكن المدن الكبرى كانت تمر الواحدة تلو الأخرى، والفارس يواصل سفره. عندها عاد الحصان للتفكير: «ربما لم أصبح كائناً بشرياً، بل ملاكاً، لأن الملائكة لا يحتاجون إلى الطعام».

وأخيراً وصلا إلى مبتغاهما، واقتيد الحصان إلى الإسطبل فافترس بشراهة كل العلف الذي وجده هناك.

ثم قال لنفسه: «لماذا أعتقد أن الأمور تتغيّر إذا لم تتبع مجراها المعتاد؟ فأنا لستُ إنساناً ولا ملاكاً، بل أنا مجرّد حصان جائع!».

فن التجريب

الجملة التالية لبابلو بيكاسو: «الله فنان عظيم، فقد خلق الزرافة والفيل والنملة. وفي الواقع إنه لم يسعَ أبداً لتتبّع أسلوب معينّ بل بكل بساطة فعل ما كان يرغب في فعله».

رغبتنا في المشي تخلق طريقَنا. ومع ذلك، فعندما نبدأ رحلةً أحلامنا، نكون خائفين جداً، كما لو أننا مجبَرين على القيام بكل شيء على أكمل وجه. وأخيراً، إذا عشنا حيوات مختلفة، فمن الذي اخترع نموذج «على أكمل وجه»؟ وإذا كان الله قد خلق الزرافة والفيل والنملة، وإذا كنا نريد أن نعيش على صورته، ونتشبّه به فلماذا نتبع نموذجاً؟ النموذج يفيدنا أحياناً في عدم تكرار الأخطاء الحمقاء التي ارتكبها آخرون، ولكنه في أغلب الأحيان سجن يجبرنا دائماً على تكرار ما يفعله الجميع.

الأناقة هي ارتداء ربطة عنق تناسب الجوارب. إنها الاضطرار إلى الاحتفاظ بآراء اليوم إلى الغد. وحركة العالم أين هي؟

بمجرّد أنكم لا تتسبّبون بخطأ في حق شخصٍ ما، غيّروا آراءكم بين وقتٍ وآخر، وادخلوا في تناقض دون أن تخجلوا من ذلك. فلديكم هذا الحق؛ ولا يهمّ ما سيفكّر به الآخرون فهم سيفكّرون بكل الطرق.

عندما نقرّر التصرّف، تحدث بعض المبالغات، فلنتذكّر الحكمة القديمة التي تقول: «لا تُصنع العجّة دون تكسير البيض». ومن

الطبيعي أيضاً أن تظهر عقبات غير متوقَّعة، ومن الطبيعي أن تنجم جراحٌ عن هذه الصراعات. الجروح تمضي، وتبقى ندباتها فقط.

هذه الندبات نعمة، فهي تبقى معنا طوال حياتنا، وهي تساعدنا كثيراً، ويكفينا أن ننظر إليها إذا ما ألحّت الرغبة علينا في لحظةٍ ما، للفائدة أو لأي سبب آخر.

الندبات تُرينا علامات القيود، وتُرينا فظائع السجن، ونحن نواصل مسيرتنا إلى الأمام.

استرخوا إذن، ودَعوا العالم يدور من حولكم، واكتشفوا فرح مفاجأة أنفسكم. «لقد اختار الله جنون العالم لكي يُخجِل العقلاء». كما قال القديس بولس.

يلاحظ فارس النور أن بعض اللحظات تتكرّر، وغالباً ما يجد نفسه أمام المشكلات نفسها، وفي مواجهة المواقف التي واجَهها من قبل.

يشعر بالإحباط ويبدأ بالتفكير بأنه عاجز عن المضيّ قُدماً في الحياة، لأن الأمور التي عاشها في الماضي تعود.

يشكو لقلبه قائلاً: «لقد مررتُ من هنا من قبل». فيجيبه قلبه: «لقد مررتَ بالفعل ولكنك لم تتجاوز».

عندها يعي الفارس أن تكرار التجارب له غاية: أن يتعلّم ما لم يتعلّمه من قبل. إنه يعطي دائماً حلاً مختلفاً لكل صراع يتكرّر، ولا يعدّ إخفاقاته أخطاء، بل خطوات نحو اللقاء مع نفسه.

أفخاخ البحث

حين يزداد الناس انتباهاً لمسائل الروح تحدث ظاهرة أخرى: عدم التسامح مع البحث الروحي لدى الآخرين. كل يوم أتلقّى مجلات ورسائل إلكترونية ورسائل عادية وانتقادات، وكلها تحاول أن تثبت أن الطريق الفلاني أفضل من الآخر، وتحوي سلسلة من القواعد لبلوغ «الإشراق». وبسبب الحجم المتعاظم لهذه المراسلات قرّرتُ أن أكتب حول ما أعدّه خطيراً في هذا البحث.

الأسطورة 1: الروح يمكنها أن تهتم بكل شيء. وهذا غير صحيح، وأفضّل أن أوضح هذه الأسطورة بقصة: منذ عدة سنوات كان لي صديقة تسعى بعمق في هذا البحث الروحي - وأخذت تصاب بالحمى وتشعر بأنها ليست على ما يرام أبداً. وقد حاولت طوال الليل أن تستحضر جسدها لاجئة إلى جميع التقنيات التي كانت تعرفها من أجل أن تهتم بنفسها بقدرة الفكر وحدها. في اليوم التالي دفع القلقُ أبناءها إلى نصحها باستشارة طبيب، ولكنها رفضت مؤكّدةً أنها تنقّي جسدها. ولم تقبل الذهاب إلى المشفى إلا بعد أن أصبح وضعها لا يُطاق، وهناك اضطرّ الأطباء إلى إجراء عمل جراحي لها بعد أن شخّصوا الزائدة الدودية. انتبهوا إذن: من الأفضل أحياناً أن ندعو الله أن يرشد أيدي الطبيب إلينا من أن نحاول العناية بجسدنا بنفسنا.

الأسطورة 2: اللحم الأحمر يُبعد النور الإلهي. من البديهي أن عليكم، إذا ما انتميتم إلى دين معيّن، أن تحترموا القواعد المنصوص

عنها ـ اليهود والمسلمون، على سبيل المثال، لا يأكلون لحم الخنزير ـ وفي هذه الحال، نحن أمام ممارسة تدخل في صميم الإيمان. ومع ذلك، فإن الصيغة تغوص ضمن موجة من «التطهير» من قبل الطعام: فالنباتيون المتعصّبون ينظرون إلى من يأكلون اللحم وكأنهم مسؤولون عن اغتيال الحيوانات. ولكن أليست النباتات كائنات حية أيضاً؟ الحياة حلقة ثابتة من الحياة والموت، وذات يوم نحن من سنغذّي الأرض، فإذا كنتم لا تنتمون إلى دين يحرّم غذاءً معيناً كلوا ما يطلبه جسمكم.

أودّ هنا أن أذكّر بقصة المجوسي من أصل روسي جورج غوردجييف: عندما كان شاباً ذهب ليزور معلّماً كبيراً، ولكي يُدهش هذا الأخيرَ لم يكن يأكل إلا النباتات.

وذات مساء، أراد المعلّم أن يعرف لماذا يتبع نظاماً غذائياً بهذه القسوة، فأجاب غوردجييف: «لكي أبقي جسمي نقياً». فضحك المعلّم ونصحه مباشرةً أن يكفّ عن هذه الممارسة، فإذا ما استمرّ هكذا سينتهي كزهرة في بيت زجاجي: نقية جداً ولكنها لا تستطيع أن تقاوم تحديات السفر والحياة. كما قال المسيح: «ليس الشر فيما يدخل إلى فم الإنسان، بل فيما يخرج منه».

الأسطورة 3: الله تضحية. أناس كثيرون يبحثون عن طريق التضحية وإفناء الذات، مؤكّدين أن علينا أن نتعذّب في هذه الدنيا لكي نعرف السعادة في الآخرة. ولكن إذا كانت هذه الدنيا نعمة من الله فلماذا لا نتنعّم إلى أقصى حد من مباهج الحياة؟ لقد تعوّدنا على صورة للمسيح مسمَّراً إلى صليبه، ولكننا نسينا أن عذابه لم يبقَ أكثر من ثلاثة أيام، أما عمره الباقي فقد أمضاه في السفر وفي ملاقاة البشر والأكل والشرب وحمل رسالته في التسامح. إلى درجة أن معجزته الأولى كانت «غير صحيحة سياسياً»: عندما نفد الشراب في عرس قانا، حوّل الماء إلى خمر. لقد فعل ذلك برأيي لكي يبينّ للجميع أن لا ضير أبداً في أن يسعد الإنسان، وأن يحتفل، لأن الله

يكون أكثر حضوراً بكثير عندما نكون مع الآخرين. ويقول محمد ما معناه: «إذا كنا تعساء فسنحمل تعاستنا إلى الآخرين». وبوذا صار نحيلاً جداً بعد فترة من الامتحان والجهد في الحياة حتى عجز عن الغرق؛ وعندما أنقذه أحد الرعاة فهم أن العزلة والتضحية يبعداننا عن معجزة الحياة.

الأسطورة 4: طريق واحد يوصل إلى الله. وهذه هي أخطر الأساطير جميعاً. وهنا تبدأ تفسيرات السر العظيم والحروب الدينية والحكم على أخينا الإنسان. يمكننا أن نختار ديناً (فعلى سبيل المثال أنا كاثوليكي) ولكن يجب أن نفهم أن أخانا قد اختار ديناً آخر، وسيصل إلى نقطة النور نفسها التي نبحث عنها عبر ممارساتنا الروحية. وأخيراً من الضروري أن نتذكّر أننا لا نستطيع بأية طريقة أن نحمّل الكاهن ولا الحاخام ولا الإمام مسؤولية قراراتنا. فنحن الذين ننشئ بكل فعل من أفعالنا الطريقَ المؤدّية إلى الفردوس.

حمي كريستيانو أويتيسيكا

قبل وفاة حمي بقليل استدعى أسرته وقال: «أنا أعرف أن الموت ليس إلا ممراً، وأريد أن أعبر بلا حزن. ولئلا تقلقوا سوف أرسل علامة تدل على أن مساعدة الناس في هذه الدنيا تستحق العناء». تمنّى أن تُحرَقَ جثته، وأن يُذرى رماده على شاطئ أربوادور، بينما تقوم آلة تسجيل بإذاعة الموسيقا التي يفضّلها.

توفي بعد يومين. تكفّل أحد الأصدقاء بالحرق في ساو باولو، وذهبنا جميعاً إلى أربوادور حاملين آلة التسجيل والعلبة التي تحمل الرماد. وعندما وصلنا إلى الشاطئ اكتشفنا أن الصندوق كان مغلقاً ببراغٍ. حاولنا فتحه ولم نستطع.

لم نرَ أحداً على طول الشاطئ إلا أحد المتسولين الذي دنا منا وسألنا عما نريد.

أجابه أخو زوجتي: «مفك براغٍ لأن رماد أبي في هذا الصندوق.

- لا ريب في أنه رجل طيب جداً لأني وجدتُ للتو هذا».

ثم ناولنا مفك براغٍ.

شكراً أيها الرئيس بوش

نشر هذا المقال على موقع إنترنت إنكليزي في 8 آذار 2003، قبل غزو العراق بأسبوعين. وخلال هذا الشهر، كان هذا المقال الأكثر بثاً حول الحرب، مع ما يقارب خمسة ملايين قارئ.

شكراً لكَ أيها المسؤول الكبير. شكراً يا جورج بوش.

شكراً لأنك بيّنتَ للجميع الخطر الذي يمثّله صدّام حسين. ربما نسي بعضُنا أنه استخدم الأسلحة الكيميائية ضد شعبه، وضد الأكراد وضد الإيرانيين. صدّام حسين ديكتاتور دموي، وأحد أهم معالم الشر اليوم.

ولكن لدي أسباب أخرى لكي أشكرك. فخلال الشهرين الأولين من عام 2003 عرفتَ كيف تبيّن للعالم كثيراً من الأمور الهامة، ولذلك فأنتَ تستحق العرفان بالجميل.

وهكذا أقول لكَ شكراً وأنا أتذكّر قصيدةً حفظتُها وأنا طفل.

شكراً لتبيانك أن الشعب التركي وبرلمانه لا يُبلعان، ولا حتى بـ 26 مليار دولار.

شكراً لإظهارك للعالم الهوة الهائلة الموجودة بين قرارات الحكّام ورغبات الشعوب. ولإظهارك بجلاء أن خوسيه ماريا أزنار وطوني بلير لا يحترمان أبداً الأصوات التي انتخبتهما ولا يقيمان لها وزناً. أزنار قادر على تجاهل أن 90% من الإسبان عارضوا الحرب، وبلير لا يهتم أبداً بأكبر مظاهرة شعبية خلال الثلاثين سنة الأخيرة في إنكلترا.

شكراً لأن دأبك أرغم بلير أن يدخل إلى البرلمان البريطاني حاملاً ملفاً أعدّه طالب جامعي قبل عشر سنوات، وقدّمه على أنه «دليل قاطع أعدّته الاستخبارات البريطانية».

شكراً لأنكَ جعلتَ كولن باول يقدّم لمجلس الأمن في الأمم المتحدة صوراً ما لبثت أن دُحضت بعد أسبوع من قبل هانز بليكس، المفتش المسؤول عن نزع أسلحة العراق.

شكراً لأن موقفك سبّب لوزير الخارجية الفرنسي دومينيك دو فيلبان الذي ألقى خطابه ضد الحرب أن يلقى التصفيق في جلسة كاملة النصاب ـ الأمر الذي لم يحدث، على حد علمي، إلا مرة واحدة في تاريخ الأمم المتحدة، لخطاب لنلسون مانديلا.

شكراً، فبفضل جهودك لصالح الحرب، ولأول مرة، فإن الأمم العربية ـ المجزّأة عادةً ـ أدانت الاعتداء بالإجماع، خلال اجتماع القاهرة في الأسبوع الأخير من شهر شباط الماضي.

شكراً، فبفضل فصاحتك التي تؤكّد أن «الأمم المتحدة لديها حظ في أن تبينّ أهميتها»، حتى الدول الأكثر دموية انتهى بها الأمر بأن اتخذت موقفاً ضد غزو العراق.

شكراً لسياستك الخارجية التي أدّت بوزير الخارجية البريطاني سترو لأن يعلن في قلب القرن الحادي والعشرين «أن الحرب قد يكون لها مبرّرات أخلاقية». وأن يفقد بذلك كل مصداقية له.

شكراً لمحاولة تقسيم أوروبا التي تناضل للتوحّد؛ وهذا الإنذار لن يتم تجاهله.

شكراً لأنك نجحتَ بما نجح فيه قليل من البشر خلال قرن: تجميع ملايين الأشخاص، في كل القارات، وهم ينادون بالفكرة نفسها ـ رغم أن هذه الفكرة مناقضة لفكرتك.

شكراً لأنكَ أشعرتَنا من جديد أن كلامنا، حتى لو لم يكن مسموعاً، على الأقل فقد قيل. وهذا سيمنحنا المزيد من القوة في المستقبل.

شكراً لتجاهلنا، ولتهميش كل من اتخذوا موقفاً ضد قرارك، لأن مستقبل الأرض سيكون للمُبعَدين.

شكراً، فلولاك، ما عرفنا قدرتنا على الحشد. ربما لن ينفع في شيء اليوم ولكنه سيكون نافعاً غداً.

الآن وطبول الحرب تُضرب بصورة حاسمة، سأتبنى الكلمات التي قالها ملك أوروبي لأحد الغزاة: «ليكن صباحك بهيجاً ولتشرق الشمس على أسلحة جنودك، فبعد هذا الظهر سوف أهزمك».

شكراً لأنك سمحت لنا جميعاً، جيش المجهولين الذي يتنزّه في الشوارع محاولاً إيقاف مسيرةٍ بدأت الآن، على اكتشاف ما هو شعور العجز، وعلى تعلّم المواجهة والتغيير.

إذن استفِد من صباحك ومما يمكنه أن يحمل إليك من مزيدٍ من المجد.

شكراً، لأنك لم تُصغِ إلينا، ولم تأخذنا على محمل الجد. اعلم جيداً أننا نصغي إليك، وأننا لن ننسى أقوالك.

شكراً أيها الزعيم العظيم جورج بوش.

شكراً جزيلاً.

الخادم الذكي

في الماضي، وفي قاعدة جوية في أفريقيا، أجرى الكاتب سانت ـ إيكزوبيري عملية جمع للمال بين أصدقائه لأن أحد الخدم المغاربة كان يريد العودة إلى مسقط رأسه، فاستطاع جمع ألف فرنك.

نقل أحد الطيارين الخادم إلى الدار البيضاء، ولدى عودته روى ما جرى معه:

«منذ وصوله، ذهب ليتناول الغداء في أفخر مطعم، ووزّع بخاشيش كبيرة، ودفع ثمن مشروب الحضور جميعاً، واشترى ألعاباً لأطفاله ولأطفال قريته. لم يكن لدى هذا الرجل أي إحساس بالتوفير».

ردّ سانت إيكزوبيري:

ـ بل على العكس. إنه يعرف أن أفضل استثمار في العالم هو الناس. فهو عندما أنفق المال بهذه الطريقة استطاع كسب احترام مواطنيه الذين قدّموا له في النهاية وظيفةً. في نهاية المطاف وحده الرابح يمكنه أن يكون بهذا الكرم.

الولع الثالث

طوال السنوات الخمس عشرة الماضية، أذكر أني عشت ثلاثة ولوعات قاهرة - من تلك التي تجعلك تقرأ عنها، وتتكلّم عنها بإفراط، وتبحث عن الأشخاص الذين لديهم الاهتمام نفسه، وتنام وتصحو وأنت تفكّر بها. الولع الأول، كان عندما اشتريتُ حاسوباً، وهجرتُ الآلة الكاتبة إلى الأبد، واكتشفتُ الحرية التي يمنحها لي (أكتب الآن في مدينة فرنسية صغيرة على آلة تزن أقل من 1.5 كغ، وتحوي عشر سنوات من حياتي المهنية، وأعد نفسي بإيجاد كل ماأرغبه خلال أقل من خمس ثوان). والولع الثاني، عندما دخلتُ إلى الإنترنت أولَ مرة - وهي في هذا العصر مكتبة أكبر من أكبر المكتبات.

ولكن الولع الثالث لا علاقة له بالإنجازات التقنية، إنه... القوس والسهم. في شبابي قرأتُ كتاباً مدهشاً، الزن في فن القوس والنشّاب. لـ إي هيريجل (ديرفي - ليفر). وكان كاتبه يحكي مسيرته الروحية عبر هذه الرياضة. بقيت الفكرة في لاشعوري حتى اليوم الذي التقيتُ فيه برامي سهام في جبال البيرينيه. وبعد حديث أعارني قوسه، ومنذ ذلكم الحين لم أعد أستطيع أن أعيش دون أن أرمي السهام يومياً تقريباً.

في البرازيل أقمتُ منصة للإطلاق في شقتي (من تلك التي يمكن فكّها خلال خمس دقائق عندما يأتي الضيوف). وفي الجبال الفرنسية أخرج يومياً للممارسة ما أودى بي إلى السرير مرتين -

بعد أن أصبتُ بانخفاض الحرارة لأني بقيتُ أكثر من ساعتين معرَّضاً لدرجة حرارة أقل «ـ 6» درجات مئوية. وشاركتُ في منتدى دافوس الاقتصادي الدولي لهذه السنة وأنا أتناول مسكّنات قوية جداً؛ فقبل يومين وبسبب وضعية سيئة للذراع، تعرّضت لالتهاب عضلات قوي.

فيم يتجلّى الإدهاش في هذا كله؟ لا شيء عملياً في أن تسدّد على دريئة بقوس وسهم، وهذا سلاح يعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. ولكن هيريجل الذي أيقظ لدي هذا الولع كان يعرف عما يتحدّث. وإليكم بعض المقاطع من كتاب الزن في فن القوس والنشّاب (ويمكن أن يُطبّق على نشاطات شتى في الحياة اليومية):

«لحظة الشد، يجب أن تكون مركَّزاً على ما هو مفيد لك، أما فيما عدا ذلك فوفّر طاقتك، وتعلّم من القوس أنه لكي تصل إلى دريئة ليس من الضروري أن تبذل جهداً فائقاً، بل أن تسدّد إلى هدفك.

أعطاني معلّمي قوساً قاسياً جداً، فتساءلتُ لماذا يبدأ تعليمي وكأنني محترف سابق فأجاب: «من يبدأ بالأمور السهلة، لا يكون متأهّباً للتحديات الكبرى. ومن الأفضل أن تتعرّف مباشرةً إلى نوع الصعوبة التي ستواجهها فيما بعد».

خلال زمن طويل كنتُ أرمي دون أن أتمكّن من فتح القوس، وذات يوم علّمني معلّمي على تمرين تنفّس، فصار كل شيء سهلاً. تساءلتُ لماذا تأخّر في تصحيح خطئي، فأجاب: «لو أنني علّمتكَ تمارين التنفّس منذ البداية لفكّرت أنها بلا فائدة. أما الآن فأنتَ تصدّق ما أقوله لك، وستمارس وأنت تعرف أنها هامة حقاً. فمن يعرف كيف يربّي يتصرّف بهذا الشكل».

لحظة إطلاق السهم تتبدّى بطريقة غريزية، ولكن عليكَ أن تعرف أولاً القوس والسهم والدريئة. والضربة الكاملة في منافسات الحياة تلجأ إلى الحدس أيضاً. ومع ذلك لا يمكن نسيان التقنية إلا بعد أن نتقنها تماماً».

وبعد أربع سنوات صرتُ قادراً على التحكّم بالقوس، وهنّأني معلّمي ففرحت، وقلتُ إني وصلتُ إلى منتصف الطريق، فقال معلّمي: «لا، لئلا تقع في الأفخاخ السيئة، من الأفضل لك أن تعدّ نفسكَ قد قطعتَ نصف الطريق بعد أن تجتاز تسعين بالمائة منه».

ملاحظة: *استخدام القوس والنشاب خطير. وفي بعض البلدان (مثل فرنسا)، هو مصنّف كسلاح، ولا يمكن ممارسته إلا بعد الحصول على بطاقة تأهيل، وفي الأماكن المنصوص عنها بالإسم فقط.*

الكاثوليكي والمسلم

خلال وجبة غداء كنتُ أتحدّث مع كاهن كاثوليكي وشاب مسلم. وعندما مرّ النادل حاملاً صينية أخذ الجميع إلا الشاب المسلم، وكان يحترم الصيام الذي نصّ عليه القرآن.

وبعد انتهاء الغداء خرج المدعوون، ولم يتأخر أحدهم عن القول: «ألا ترى كم المسلمون متعصّبون! من حسن الحظ أنكم لا تشبهونهم في شيء».

قال الكاهن: «بلى، هذا الشاب يحاول طاعة الله مثلي، ولكننا نتبع قوانين مختلفة فقط».

ثم ختم كلامه قائلاً: «من السوء بمكان ألا يرى الناس إلا مايفرق بينهم. لو أنهم ينظرون بحب أكثر، لرأوا ما يجمع بينهم، ولحُلّت نصف مشكلات العالم».

قانون جانط

سألني الصحافي النرويجي: «ما رأيك بالأميرة مارتا ـ لويز؟».

كان الصحافي يجري المقابلة على ضفة بحيرة جنيف. أنا عادةً أرفض الإجابة على أسئلة تخرج عن سياق عملي، ولكن في تلك المرة كان لفضوله باعث: على فستانها التي كانت ترتديه بمناسبة عيد ميلادها الثلاثين، كانت قد طرّزت أسماء عدة أشخاص أثّروا على حياتها، وكان اسمي من بينها (وجدت زوجتي الفكرة جميلةً إلى درجة أنها قرّرت أن تقوم بالأمر نفسه في عيد ميلادها الخمسين، ووضعت في زاوية فستانها العبارة التالية: «مستوحى من أميرة النرويج»).

أجبتُ قائلاً: «أرى أنها امرأة حسّاسة وناعمة وذكية. سنحت لي الفرصة أن ألتقي بها في أوسلو، عندما قدّمتني لزوجها، وكان كاتباً مثلي».

صمتُّ قليلاً، ولكن كان عليّ أن أتابع كلامي: «وثمة أمر لا أفهمه حقاً: لماذا قامت الصحافة النرويجية بمهاجمة عمل زوجها بعد زواجه منها؟ في حين أن الانتقادات كانت إيجابية من قبل».

في الحقيقة لم يكن ذلك سؤالاً بل استفزازاً، لأني تصوّرت الجواب من قبل: تغيّر النقد لأن الأشخاص شعروا بالحسد، أمرّ المشاعر الإنسانية.

ولكن الصحافي كان أدق عندما قال: «لأنه خرق قانون جانط».

طبعاً أنا لم أسمع من قبل بهذا القانون، فشرح لي ما يعنيه. وعندما تابعتُ سفري أدركتُ أن من الصعب جداً أن تجد من لا يعرف هذا القانون في البلدان الاسكندنافية. رغم أنه موجود منذ بدء الحضارة، فإنه لم ينشر رسمياً إلا في عام 1933 من قبل الكاتب أسكل ساندموز في رواية *لاجئ يتجاوز حدوده*.

خلاصة محزنة: قانون جانط لا يقتصر على البلدان الاسكندنافية. بل إنه مطبّق في جميع بلدان العالم، حتى لو قال البرازيليون: «هذا لا يحدث إلا هنا»، أو أن الفرنسيين يؤكدون: «عندنا، للأسف الأمر هكذا». وبما أن القارئ يشعر بالانزعاج لأنه قرأ ما يقارب نصف النص دون أن يعرف ما يعنيه قانون جانط بالضبط، فسوف أحاول أن ألخّصه على طريقتي:

«أنت لا تساوي شيئاً، ولا أحد يهتم بما تفكّر به، التواضع والغفل هما الخيار الأفضل. إذا ما تصرّفتَ هكذا فلن تصادف مشكلات في الحياة أبداً».

قانون جانط يعني، في سياقه، الشعور بالغيرة والحسد الذي يسبّب أحياناً كثيراً من الصداع لأشخاص من أمثال آري بيهن، زوج الأميرة مارتا ـ لويز. ذلك هو أحد مظاهره السلبية، ولكن ثمة ما هو أخطر.

فبفضلها تغيّر العالم بكل الطرق الممكنة من قبل أناس لايخافون من ملاحظات الآخرين، وينتهي بهم الأمر بأن يقوموا بكل الشرور التي يرغبونها. لقد شهدنا للتو حرب العراق العبثية التي تواصل حصد الأرواح: إننا نرى هوّة كبرى بين الدول الغنية والدول الفقيرة، ونرى الظلم الاجتماعي في كل مكان، والعنف المستشري، وأشخاصاً مضطرّين للتخلّي عن أحلامهم لأنها هوجمت بظلم وبجبن. قبل أن يسبّب هتلر الحرب العالمية الثانية كان قد أعطى عدة إشارات عن نواياه، واستطاع أن يذهب بعيداً، ذلك لأنه يعرف تماماً أن لا أحد يجرؤ على تحدّيه بسبب قانون جانط.

قد يكون التواضع مريحاً، إلى أن يأتي اليوم الذي تطرق الباب فيه، عندها يتساءل الناس: «ولكن لماذا لم يقل أحدٌ شيئاً في حين أن الجميع يعرفون ما سيحدث؟».

الجواب بسيط: لم يقل أحد شيئاً، لأنهم هم لم يقولوا شيئاً.

ولتجنّب أن تسوء الأمور أكثر، ربما كان من المناسب الآن أن نكتب عكس قانون جانط:

«أنتَ تساوي أكثر مما تظن بكثير. وعملك وحضورك على هذه الأرض مهمّان جداً، حتى لو كنتَ لا تصدّق ذلك. بالتأكيد إنكَ إذ تفكّر بهذه الطريقة فقد تصادف كثيراً من المشكلات لأنك تخرق قانون جانط؛ ولكن لا تجزع، واصل حياتك بلا خوف، وفي النهاية سوف تكسب».

العجوز في كوباكابانا

كانت على رصيف شارع أتلانتيكا الواسع، ومعها قيثارة وعبارة مكتوبة تحملها بيدها: «لنُغَنِّ معاً!».

أخذت تعزف بمفردها، ثم وصل سكّيرٌ وعجوز أخرى، وأخذا يغنّيان معها. ثم أتى حشد صغير، وحشدٌ آخر كان بمثابة الجمهور أخذ يصفّق عند نهاية كل وصلة.

سألتُ بين أغنيتين: «لماذا تفعلين هذا؟».

فأجابت العجوز:

ـ لئلا أبقى وحيدة، فأنا أعيش حياةً شبه وحيدة كمعظم المسنين.

إن شاء الله يحلّ الجميع مشكلاتهم بهذه الطريقة!

لنبقَ منفتحين على الحب

في لحظات معينة نرغب أن نساعد من نحبّهم كثيراً، ولكننا لا نستطيع فعل شيء، فإما أن الظروف لا تساعدنا على الاقتراب من الشخص، أو أنه منغلق على كل فعلٍ تضامني أو مساعدة.

إذاً يبقى لنا الحب وحده. في اللحظات التي يبدو فيها كل شيء عبثياً، يمكننا أن نحبّ دون أن ننتظر مكافآت، ولا جزاء ولا شكوراً.

إذا ما نجحنا في التصرّف بهذه الطريقة فإن طاقة الحب تأخذ بتغيير الكون من حولنا. وعندما تظهر هذه الطاقة فإنها قادرة دوماً على الفعل. «الزمن لا يغيّر الإنسان. وقوة الإرادة لا تغيّر الإنسان. الحب هو الذي يغيّره» كما يقول هنري دروموند.

قرأتُ في إحدى الصحف أن طفلةً في برازيليا كانت قد تعرّضت لضرب مبرح من أهلها، وكانت النتيجة أنها لم تعد تستطيع أن تحرّك جسمها، وبقيت بكماء.

نُقلت إلى مشفى الباز، واعتنت بها ممرضة كانت تقول لها كل يوم: «أحبك». ورغم أن الأطباء أكّدوا لها أن المريضة لا تسمع، وأن جهودها تذهب هباءً، فإن الممرّضة أصرّت على أن تردّد كل يوم: «أحبكِ، لا تنسي ذلك».

بعد ثلاثة أسابيع استعادت الطفلة حركاتها. وبعد أربعة أسابيع عادت إلى الكلام والابتسام. لم تُجرِ الممرضة أية مقابلة، ولم تنشر الصحيفة اسمَها ـ ولكنه مكتوب هنا لئلا ننسى أبداً: الحب يشفي.

الحب يغيّر، الحب يشفي. ولكن الحب يصنع أفخاخاً قاتلة أحياناً، وينتهي بأن يدمّر الشخص الذي اعتمد عليه اعتماداً كلياً. ما هذا الشعور المعقّد الذي يقبع في عمق السبب الوحيد لدينا لكي نبقى على قيد الحياة، ولكي نناضل ونسعى إلى تحسين أنفسنا؟

سأكون غير مسؤول إذا ما حاولت تعريفه، لأني لا أستطيع إلا أن أشعر به، مثلي مثل الكائنات البشرية جميعاً. لقد كُتبت آلاف الكتب، ومُثلت المسرحيات، وأُنتجت الأفلام، وكُتبت القصائد، ونُحتت المنحوتات الخشبية والرخامية، ومع ذلك فإن كل ما يستطيع الفنان أن ينقله هو فكرة شعور، وليس الشعور نفسه.

ولكني تعلّمتُ أن هذا الشعور موجود في الأشياء الصغيرة، ومتجلٍ في أتفه مواقفنا. لذا يجب أن نمتلك الحب في أرواحنا دائماً، عندما نتصرّف وعندما لا نتصرّف.

يجب أن نمسك بالهاتف ونقول كلمة رقيقة كنا قد أجّلناها إلى وقتٍ لاحق. يجب أن نفتح أبوابنا ونسمح بالدخول إلى من هو بحاجة إلى مساعدتنا. أن نقبل وظيفة، أن نترك وظيفةً، أن نتّخذ القرار الذي كنّا قد أجّلناه، أن نطلب الصفح على خطأ ارتكبناه وهو لا يتركنا بسلام، أن نطلب حقاً لنا، وأن نفتح حساباً عند الزهّار الذي هو أهمّ من الصائغ، وأن نقوّي صوت الموسيقا عندما يكون من نحبّه بعيداً، وأن نخفض صوتها عندما يكون قريباً، وأن نعرف كيف نقول «نعم» و«لا» لأن الحب يعني النشاطات الإنسانية جميعاً، وأن نكتشف رياضةً يمكن أن يمارسها اثنان، وألا نتبع أية تعاليم، حتى الموجودة في هذه الفقرة، لأن الحب بحاجة إلى الإبداع.

وعندما لا يكون شيء من هذا كلّه ممكن، وعندما لا يبقى إلّا الوحدة، فلنتذكّر قصةً أرسلها إليّ أحد القرّاء يوماً:

كانت إحدى الورود تحلم ليل نهار بأن يأتيها النحل، ولكنّ أية نحلة لم تزر وريقاتها.

ومع ذلك فقد واصلت الوردة حلمها. وطوال لياليها الطويلة كانت تتخيّل سماءً مليئةً بنحلٍ يأتي ليعانقها. وهكذا كانت تقاوم حتى اليوم التالي، حيث كانت تنفتح من جديد على نور الشمس.

وذات مساء عرف القمر وحدة الوردة فسألها:

ـ ألم يُضنِكِ الانتظار؟

ـ ربما. ولكن يجب عليّ أن أواصل النضال.

ـ ولماذا؟

ـ لأني إذا لم أتفتّح فسأذوي.

في اللحظات التي تبدو فيها الوحدة تسحق كل جمالٍ، لا نملك من وسيلةٍ أخرى للمقاومة سوى أن نبقى منفتحين.

الإيمان بالمستحيل

يقول وليم بليك في أحد نصوصه: «كل ما هو واقعٌ اليومَ كان بالأمس حلماً مستحيلاً». وهكذا نحن نمتلك الطائرة، ورحلات الفضاء، والحاسوب الذي أكتب عليه في هذه اللحظة.

في كتاب لويس كارول الشهير عبر المرآة، هناك حوار بين الشخصية الرئيسية والملكة التي قالت للتو كلاماً غريباً. ردّت أليس:

ـ لا أستطيع أن أصدّق ما تقولينه.

كرّرت الملكة بحزن:

ـ لا تستطيعين؟ حاولي من جديد: تنفّسي بعمق، أغمضي عينيك، وصدّقي.

ضحكت أليس وقالت:

ـ لا فائدة من المحاولة. وحدهم الأغبياء يعتقدون أن المستحيلات يمكنها أن تتحقّق.

ـ أعتقد أن ما ينقصكِ هو قليل من الممارسة. عندما كنتُ في سنّك كنتُ أتمرّن نصف ساعة على الأقل يومياً بعد الفطور، وكنتُ أفعل ما بوسعي لكي أتخيّل خمسةً أو ستة أشياء غير معقولة يمكنها أن تعترض طريقي، وأنا الآن أرى أن معظم ما كنتُ قد حلمتُ به قد صار واقعاً. بل إني صرتُ ملكةً بسبب ذلك.

الحياة تأمرنا باستمرار: «آمن!» ومن الضروري، من أجل

سعادتنا، أن نؤمن أن معجزةً يمكن أن تحدث في أية لحظة، ولكن ذلك من أجل وقاية أنفسنا أيضاً، ومن أجل تسويغ وجودنا. في عالمنا الحالي كثيرون يحكمون أن من المستحيل وضع حدٍّ للبؤس، وبلوغ مجتمع مبني على العدل، وتخفيف التوترات الدينية التي تتزايد يوماً بعد يوماً.

معظم الناس يتحاشون النضال بحججٍ مختلفة جداً: امتثالية، نضج، الخوف من أن يكونوا مثيرين للضحك، أو إحساس بالعجز. نرى الظلم يحيق بأخينا الإنسان ونسكت، مبرِّرين: «لا أريد أن أقع في مخاصمات بلا طائل».

هذا موقف جبان. فمن يسلك طريقاً روحياً يحمل معه رمزَ شرفٍ عليه أن يحترمه؛ إن الصوت الذي يرتفع ضد ما هو غير صحيح لهو صوت مسموع من الله.

ومع ذلك قد نسمع هذه الفكرة أحياناً:

«أنا أُمضي وقتي في الإيمان بالأحلام، وغالباً ما أسعى إلى مقارعة الظلم، ولكني ألقى الخيبة دائماً بانتظاري».

يؤمن فارس النور أن بعض المعارك المستحيلة تستحقّ أن تُقام، لذا فهو لا يخاف من الخيبات ـ وهو يعرف سطوة سيفه وقوة حبّه. إنه يرفض بقوة من هم عاجزون عن اتّخاذ القرارات ويسعون دائماً إلى تحميل الآخرين مسؤولية مصائب العالم.

فإذا لم يجابه ما هو غير صحيح ـ حتى لو بدا له ذلك فوق طاقته ـ فلن يجد أبداً طريقه الصحيح.

أرسل لي ناشري الإيراني نصاً يقول:

«اليوم فاجأني مطرٌ غزير وأنا أسير في الشارع... وبفضل الله كان معي مظلتي ومعطفي، ولكنهما كانا في صندوق السيارة الواقفة بعيداً جداً. وبينما كنتُ أركض للوصول إليها كنتُ أفكّر بأني أتلقّى إشارة غريبة من الله: لدينا دائماً الإمكانيات الضرورية لمواجهة

العواصف التي تُثيرها الحياة، ولكن في معظم الأوقات تكون إمكانياتنا مرتّبة في أعماق قلوبنا، ويجعلنا البحثُ عنها نضيّع وقتاً طويلاً: وعندما نجدها، نكون قد هُزمنا».

فلنكن على أهبة الاستعداد دائماً، وإلا فقدنا فرصتنا، أو فقدنا معركتنا.

العاصفة تدنو

أعرف أن عاصفةً تتأهّب لأني أستطيع أن أنظر إلى البعيد وأرى ما يحدث في الأفق. بالتأكيد، النور يساعد قليلاً ـ هذه نهاية المساء، الأمر الذي يقوّي حوافَّ الغيوم. كذلك فإني أرى ومض البروق.

اليوم الرياح لا تهبّ أقوى ولا أضعف من السابق. ولكني أعرف أن عاصفة تتأهّب، لأني اعتدتُ مراقبة الأفق.

توقّفتُ في نزهتي ـ لا شيء أكثر إثارةً أو رعباً من النظر إلى عاصفة تدنو. أول فكرة تخطر ببالي هي البحث عن ملاذ ـ ولكن قد يكون ذلك خطراً. قد يكون الملاذ نوعاً من الفخ ـ قريباً ستأخذ العاصفة بالزئير، ولا ريب في أنها قوية إلى درجة أنها ستقتلع السطوح وتكسر الأغصان وتقطع خطوط التوتّر العالي.

تذكّرتُ صديقاً قديماً، ولأنه أمضى طفولته في النورماندي، فقد تمكّن من أن يشهد إنزال قوات الحلفاء في فرنسا التي كان يحتلّها النازيّون. لم أنسَ كلماته:

«استيقظتُ، وكانت السفن الحربية تسدّ الأفق. وعلى الشاطئ قرب منزلي كان الجنود الألمان يتأمّلون المشهد مثلي. لكن ما كان يعذّبني أكثر من أي شيء، هو الصمت. كان صمتاً مطبقاً يسبق معركةً قاتلة».

الصمت نفسه هو الذي يحيط بي، والذي استحال شيئاً فشيئاً إلى صخب ـ صخب ناعم ـ صخب النسيم في حقول الذرة الصفراء من حولي. تغيّر الضغط الجوي، وصارت العاصفة أكثر قرباً، وتحوّل الصمت إلى حفيف أوراق.

لقد شهدتُ عدة عواصف في حياتي، ومعظمها أخذني على حين غرّة، بحيث أنه وجب عليّ أن أتعلّم ـ وسريعاً جداً ـ أن أنظر إلى البعيد وأن أفهم أني غير قادر على التحكّم بالزمن، وأن أمارس فن الصبر وأن أحترم غضب الطبيعة. الأمور لا تسير دائماً كما تشتهي سفني، وعليّ أن أعتاد على ذلك.

منذ سنوات، ألّفتُ قصيدة تقول:

«لم أعد أخاف المطر/ لأن المطر، إذ يعود نحو الأرض/ فهو يحمل من عناصر الهواء». من الأفضل السيطرة على الخوف، وأن أبدو جديراً بما كتبتُه، وأن أفهم أن الزوبعة، مهما كانت عنيفة، فإنها ستمضي بعد لحظة.

ازدادت سرعة الرياح، وأنا في حقل مفتوح. في الأفق أشجار سوف تجتذب الصاعقة، على الأقل من الناحية النظرية. جلدي كتيم حتى لو أن ثيابي مبلّلة. وبالتالي، من الأفضل لي أن أتمتّع بهذا المشهد من أن أركض بحثاً عن ملاذ.

مرّت نصف ساعة. كان جدي المهندس يحبّ أن يعلّمني قوانين الفيزياء بينما كنا نتسلّى: «عندما ترى البرق، عدَّ الثواني واضرب بـ 340، الصوت ينتشر بسرعة 340 متراً في الثانية. وهكذا ستعرف دائماً على أية مسافة وقعت الصاعقة». كان ذلك معقّداً بعض الشيء على طفل، ولكني اعتدتُ على التصرّف بهذا الشكل: في هذه اللحظة العاصفة موجودة على بعد كيلومترين.

مايزال هناك ما يكفي من الوضوح لكي أتمكّن من رؤية حواف الغيوم التي يسمّيها الطيارون CB: Cumulo - nimbus على شكل

سندان، وكأن حدّاداً يطرق السماوات ليصنع سيوفاً للآلهة الغاضبين الذين يجب أن يكونوا الآن فوق مدينة تارب.

أرى العاصفة تدنو، ككل العواصف، حاملةً الدمار - ولكن في الوقت نفسه، تروي الريف، وحكمة السماء تنزل مع مطرها. ككل العواصف لا بدّ أنها ستمرّ. وكلّما كانت عنيفة كلما كانت أسرع.

بفضل الله تعلّمتُ أن أواجه العواصف.

ولنُنهِ هذا الكتاب بالصلوات...

دامابادا (موجّه إلى بوذا)

أفضل من ألف كلمة

لا تكوننّ إلا كلمة واحدة، ولكن لتحمل السلام

وأفضل من ألف بيت شعر

لا يكوننّ إلا بيتٌ واحد، ولكن ليُبدِ الجمال

وأفضل من ألف أغنية

لا تكوننّ إلا واحدة، ولكن لتنشر الفرح.

مولانا جلال الدين الرومي، القرن الثالث عشر

في الخارج، وأبعد مما هو صحيح أو خطأ، ثمة حقل واسع جداً.

وسنلتقي هناك.

النبي محمّد، القرن السابع

اللهم إني أستخيركَ بعملك، وأستقدركَ بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنكَ تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنتَ علام الغيوب، اللهم فإن كنتَ تعلم هذا الأمر خيراً لي في عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنتَ تعلم أنه شرّ لي في ديني

ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضِّني به.

يسوع الناصري، إنجيل متى 7:7 ـ 8

اطلبوا تُستجابوا

ابحثوا تجدوا

اطرقوا الأبواب تفتح لكم

في الواقع، من يطلب يلقَ، ومن يبحث يجد، ومن نطرق بابه يفتح.

صلاة يهودية من أجل السلام

لنذهب إلى جبل الرب حيث يمكننا أن نمشي معه، ولتتحوّل سيوفنا إلى محاريث، ولتَقُم رماحنا بجني الثمار.

لا ترفعنّ أية أمة سيوفها في وجه أمة أخرى، ولا نتعلمنّ فن الحرب أبداً.

لا يجدر بأحد أن يخاف من جاره، لأن الرب قال ذلك.

لاو تزو، الصين، القرن السادس قبل الميلاد

لكي يعمّ السلام في العالم، يجب أن تعيش الأمم بسلام.

ولكي يعمّ السلام بين الأمم، يجب ألا تثور المدن بعضها على بعض.

ولكي يعمّ السلام بين المدن، يجب أن يتفاهم الجيران.

ولكي يعمّ الأمن بين الجيران، يجب أن يسود الانسجام في البيت.

ولكي يعمّ السلام في البيت، يجب أن يوجد في قلب الإنسان.





«كالنهر الذي يجري»، مجموعة من النصوص التي نشرها باولو كويلهو بين عامي 1998 و 2005. وخلال هذه الصفحات يفتح لنا أبواب عالمه ككاتب، ويقدّم مقطوعات صغيرةً عن الحياة اليومية أو من قصص خيالية تكتسب بريشته بُعداً بوصفها حكاية فلسفية وتربوية في خدمة كل من يريد أن يعيش في وئام مع العالم الذي يحيط به.

«تحوي هذه الصفحات قصص بعض اللحظات التي عشتُها، وقصصاً رُوِيت لي، وأفكاراً فكّرتُ بها بينما كنتُ أعبر بعض مراحل نهر حياتي. نُشرت هذه النصوص في صحف مختلفة في العالم، وقرّرتُ أن أراجعها وأن أجعلها في كتاب. إنها جزء من وجودي، وأنا أقدّمها لكم ياقرّائي الأعزاء».